اقرأ

فاضل السباعي

رحلة حنان





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



خذ المعارف من دار المعارف

فاضل السباعى

رحلة حنان

مجموعة قصص قصيرة

اقرأ ٤٠٣

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٣)

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع.

الإهداء

إلى أبناء أمتى .

جيل الغد .

فتيةً ، وأطفالاً ، وأجِنَّةً فى ضمير الغيب .

فى لهوهم البرىء ،

وأحزانهم الصغيرة ،

وفيما يستروحون من نسيم الحرية والعمل ،

أو يعانون من ألم الظلم والخطأ والغباء . .

فمِنْ رحلتى الحنون إلى عالمهم الزاخر ،

استلهمتُ هذه الوقائع ،

ومن وهج حياتهم قَبَسْتُهَا شُعَلاً ،

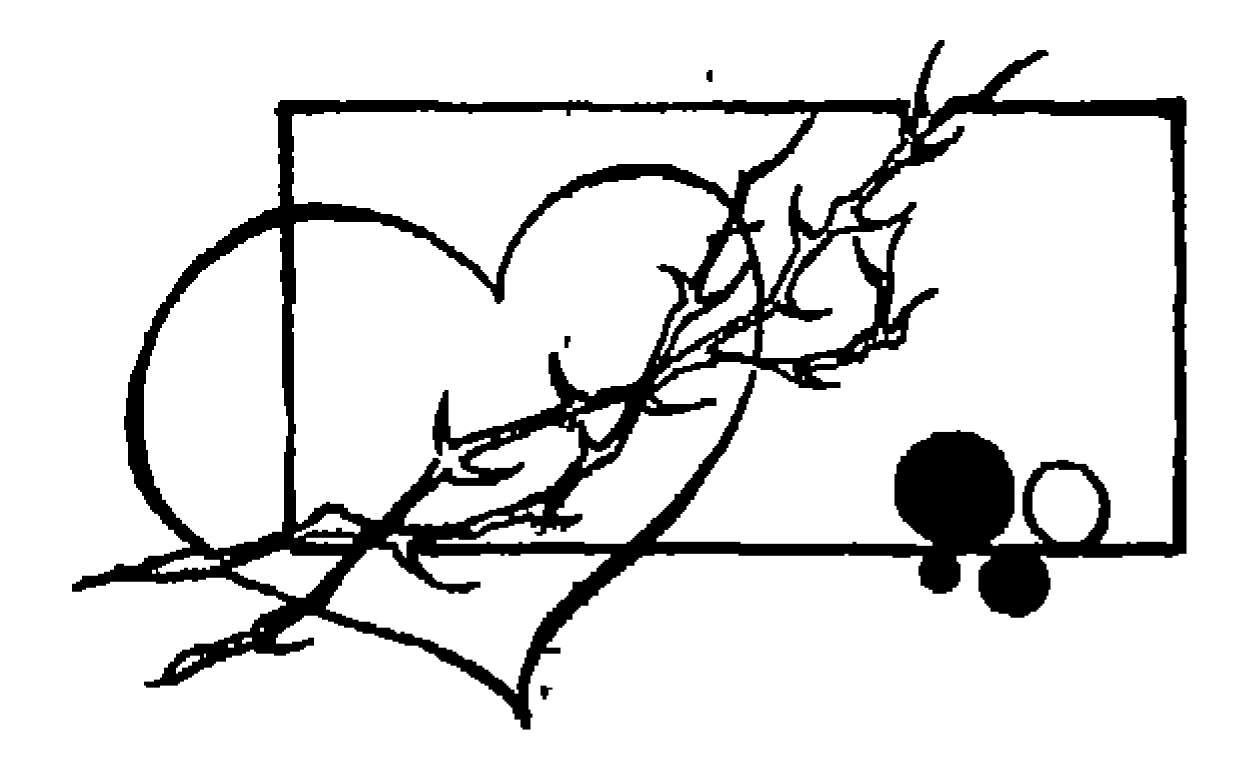
لأردّها إليهم :

فنًّا ، وحبًّا ،

وهم يتلمّسون طريقهم نحو الحق والخير والجمال ،

فاضل

أريد أمّي



وقع لى ذلك فى يوم ربيعىّ ، فى عام من الأعوام، وكان المعلم يلقى علينا درساً فى حنان الأم . وأذكر أن أبى كان قد استطاع أن يزرع ، فى نفسى . بطريقة ما ، خلال الأشهر الخمسة التى أمضيتها فى كَنَفَه ، الكراهيةَ التى يرغب نحو أمى ، وأن يُوغر صدرى عليها !

لست أدرى من أين أبدأ قصتى ! ولكن الذى أعيه جيداً أن هذا المعلم النحيل ، المرهف القسمات ، ما كاد يعلن أنه سيتحدّث اليوم عن الأم وحنانها ، وعن قدسيّة دورها فى الحياة ، وتقدير المجتمع لها ، مشيراً فى ذلك ، إلى كتاب أنيق الغلاف يحمله فى يده . . . حتى كانت صورة أمى الحبيبة — التى انتُزِعْتُ من أحضانها انتزاعاً — قد شغلت خاطرى ، وملأت صدرى وخافقى ، حتى لم أعد أتنفس إلا رائحتها وهى تضمنى إلى صدرها ، حانية علىّ ، ماسحة بيدها الرحيمة شعرى ، مقبلة وجنتى وجبينى ووجهى كله . .

لقد أخذ أبى على عاتقه ، من يوم أن حملنى إلى بيته ، أن يغذونى كرهاً بتلك الشابة الطيبة التى لم تطق العيش معه أكثر من أسابيع معدودات ، عادت بعدها إلى بيت أمها وقد استكنّ فى أحشائها جنين هو الأول والأخير ، كما انتوت من يومها أن أكون ، وأعترف بأنى لقيت ، إبّان طفولتى التى أمضيتها فى بيت أمى ، رعاية عوضتنى عن عطف الأب ، الذى طلقته أمى ، قبل مولدى ، غير آسفة على

شيء . وعندما تفتّح وعيي ، وأدركت أنه ينبغي أن يكون لكل طفل في بيته أب يسبغ عليه رعايته ، كنت أسأل أمي في إلحاح :

ـ ماما ! لماذا لايقيم أبي معنا ، ياماما ؟

فتجيبني ، وهي تمر بشفتيها على جبيني :

ـ أبوك . . . فضل أن يعيش بعيداً عنا ، ياحبيبي !

وما كانت هذه الإجابة ، ومثيلاتها ، لتـُرَوِّي فضولي ، وأنا في سني السؤول ، مقدار ذرة . ولكن أمي ، كما أذكر جيداً ، كانت تدأب على أن تبعث بي إلى حيث يعيش أبي مع أخته عمتي المترملة ، فأراه ويراني . . . دون أن تلفحني في لقائي إياه ، العاطفة التي كنت أنشد !

* * *

في ذلك اليوم الربيعيّ ، وقف المعلم النحيل ، المرهف القسمات ، الذي تعلّقنا به حبّاً منذ أول العام الدراسي ، يتلو في لهجة خاشعة :

ـ « ولا تَقُلْ لهما أُفّ ، ولا تنهرهما ، وقل لهما . . . » .

وأكملت الآية في ذات نفسي : « . . . قولا كريما » . ذلك أني حَفِظْتُها قبل اليوم . حفّظتني إياها أمي التي طالما جلست إلى جواري تلقنني العلم ، وتشرف على دروسي ، وتسهر على الليالي .

ذكرت ، ههنا ، الموقف الذي دُفِعْتُ إلى اتخاذه قبل أيام في مواجهة أمي . كان موقفاً ليس أقسى منه أو أكثر ظلماً واعتسافاً ! ولكن أبي . . . كان هو دافعي ، هو ملقني ! لقد كان أبي محرضي من يوم أتى بي إلى بيته : ويوم جاء ينتزعني من حضن أمي ، وقد أتممت

السابعة من عمرى ، أخذت أمى تنتحب وتقول :

ــ آه ! لسوف يحرمنى من أن أضمه بعد اليوم إلى صدرى !

فتجيبها جدتى :

ــ ولم هذا الظن يابنيتى ؟ أنت لم تقصرى فى حقه خلال سنوات حضانتك السبع الماضيات ، يابنتى . كنت تحملينه إليه حيث يشاء .

ولقد صدق حَدْسُ أمى .

فلم تكد قدماى الصغيرتان تطآن عتبة بيت أبى ، حتى أخذ فى تلقينى بحضور عمتى دون هوادة :

ــ أمك تكرهنى ، ياعدنان !

ــ . . . ! . . . ! . . . !

ــ لقد تركتنى . . . منذ كنت فى بطنها جنيناً !

تساءلت ببراءة ابن السنوات السبع :

ــ ولماذا تركتك يا أبى ؟ . . لماذا لاتعود إليك ؟ . . لِمَ لم تأت بها معى ؟ !

فصرف أبى بأسنانه :

ــ إنها تكرهنى . ولسوف تكرهك ، أنت أيضاً !

رفعت صوتى معترضاً :

ــ ولكنها تحبنى . . . أنا . . . يا أبى !

ــ كانت ! كانت تحبك ، أيها الشقى ! وأما اليوم ، وقد أصبحت فى بيتى فإنها تكرهك قدر كراهيتها لى !

فأكَّدتُ :

ـ أمى تحبنى . أعرف ذلك . ولا يمكن لها أن تكرهنى أبداً .

فصرخ بى :

ـ أقول لك:أمك تكرهك.. أتفهمنى ياولد؟ عليك أن تكره أمك، وتُقْلِع عن محبتّها ! !

وملأ صدرى خوف عظيم .

ـ أمك قاسية . هجرتنى . لم تصبر على . اكره أمك ، أقول لك!

رأيت الزَّبَدَ يتطاير من بين شفتيه . . . فازددت خوفاً ، ولاذت عيناى بعمتى .

ـ قل : أكره أمى ! ردد معى : أكره أمى ! أكره أمى !

رافعاً يده ، فى غضبه الأعمى ، فوق رأسى .

أجبت مفزوعاً ، وأنا أحس الدموع تَنْهَلّ من عينى :

ـ أكره أمى ! !

ـ قل : لن أحبها !

ـ لن أحبها ! !

ـ لن أحب أمى بعد اليوم !

ـ لن أحبَّ أمى بعد اليوم ! !

وحجزنى ، من يومئذ ، عن الذهاب إلى بيت أمى ، أو لقائها فى طريق ، أو مقابلتها على باب المدرسة !

فأرسلت أمى إليه الرسل ، تترجاه بلسانهم ، وتستعطفه أن يتيح

لها فرصة أن تضمنى فى بيتها ليلة كل أسبوع . وهو ماض فى عناده ، الذى لم أر عمتى مرة تقرّه عليه . وكان مايفتأ يعلن فى غلّ :

ـ لن أدعها تلمس ظفر رجله !

وعمتى التى تكبره سنًّا ، تزجره بغمغمة تريدها ألا تبلغ مسمعى :

ـ لا تثقل على الصبى . إنك ، على هذا ، ستجعل حياته بيننا جحيماً !

ثم لم يكن بدٌّ لأمى من أن ترفع أمرها إلى القضاء ، الذى حكم لها ، بعد أشهر ، بأن ترانى ، فى فناء المحكمة ساعة فى الأسبوع . وإنى لأذكر لحظة توجّب على أبى أن يصحبنى إليها ، فى يوم « الرؤية » الأولى ، وكيف أنه شحن سمعى بتلقينه :

ـ إياك أن تكلّمها ، ياعدنان ! إنها عدوتنا اللدود : عدوتى وعدوتك ! إن كانت مشتاقة لك حقًّا ، كما تدعى ، إن كانت ترغب فى أن « تراك » ، فلتنظر إليك من بعيد ، دون أن تقترب منك ! أتفهمنى ياولد ؟ ! لاتدعها تلمسك ! لا تكلّمها ! إن وجهت إليك سؤالا ، فاعتصم بالصمت ! لقد هجرتنى ! لم تعش معى سوى أسابيع ! إن امتنعت عليها ، فسأشترى لك . . . . .

وفى فناء المحكمة ، وقفتُ بإزاء أمى ، بعد ذلك الفراق الطويل ، متسمراً فى مكانى . . . وكيانى الصغير يعانى ألف انفعال .

قالت أمى تحدثنى بصوت رقيق مازال فى سمعى :

ـ اشتقت لك ، ياعدنان . أما اشتقت لى ياحبيبى ؟

انتظرت منى جواباً .

ــ ما لك صامتاً ؟ تكلم .

وانعطفت عليّ تريد أن تأخذنى إلى صدرها . فأسرعت أدير ناظرى نحو أبى ، المنتصب على مقربة : فوجدته عابس الوجه ، مقطب الجبين تقدح عيناه شرراً ! فابتعدت عنها ، متشبثاً بلاشيء .

ــ هل أنت « زعلان » ؟أنا اشتقت لك . خمسة أشهر . . . .

ونطق لسانى :

ــ لم تركت أبى ؟ !

فوجمت أمى .

ــ إنك تكرهين أبى ! وتكرهيننى !

احتقن وجهها الجميل بحمرة وردية .

ــ لم هجرت أبى ؟!

ــ هو الذى تركنى .

ــ أنت التى هجرته . . . وأنا ، بعد ، جنين فى بطنك !

صرخت أمى ، وهى تتلفت يمنة ويسرة كمن يبحث عن مصدر شرّ خفى :

ــ ماذا تعلمون الصبى ؟!

رد أبى ، من موقفه ، بصوت يابس :

ــ نحن لا نعلمه ، عدنان غدا شاباً ، يعرف كل شيء !

وأمعنت فى مراضاة أبى :

— لك ساعة فى الأسبوع . . . تنظرين إلىّ ، فيها ، من بعيد!

وارتجف صوتها ، وقد استحالت حمرة وجهها الوردية إلى لون الورس :

— ماهذا التعليم ! ماهذه الإنسانية! أهذا كلام يخرج من فم طفل عمره سبع سنين؟! أليس هذا تلقيناً؟ (وانهارت منتحبة) كنت موقنة بأنه سينقل إليه حقده الدفين ! (والتفتت إلىّ) أنا التى ربيتك ، يا عدنان ، أنا أمك . رعيتك سبع سنين . وأبوك أخذك منى بحكم القانون . خمسة أشهر لم . . . . .

أحسست ، وأمى تتكلم على هذا النحو، بجسمى كله يرتعد من انفعال كظيم ، وبالدموع السخينة تتصبب على وجنتى . وتحركت يدى إلى ثوبها الأزرق ، الموشى بزهيرات ملونات ماتزال صورها ماثلة فى خاطرى . . . امتدت يدى ، دون إرادة منى ، لتتحسس ذيل ثوبها ، مثلما كانت يدها الحانية تتحسس رأسى ساعة أكون فى حضنها ، وفى نفسى رغبة لو أعانقها ، لو ألثم يدها . . . آه ، وددت لو أمسح بوجهى ، الدموع التى بللت يدها ، أو أزيد هذه اليد الكريمة بللا من دمعى الصبيب . . .

ولكن . . . ردتنى عن ذلك كله نظرةٌ من أبى ؟

* * *

وأفقت ، وأنا فى قاعة الدرس ، على صوت المعلم ، وهو يقرأ من الكتاب فى يده بلهجة شجية :

— . . . وفى الليل ، عندما أستلقى على فراشى طلباً للنوم ، أسمع

حسيس أقدامك يا أمى ، وأنت تقبلين إلى ، ثم تحومين حولى ، تحكمين الغطاء على ، وتهدهدين كتفى ، وتطبعين على خدى قبلة الحنان . . . .

ذكرت ، فى تلك اللحظة ، أية إساءة وجهّه أبى ، ووجهتُ ، إلى أمى ، فى يوم الرؤية الثانية ، قبل يومين مضيا . إنى كلما تمثلت فى خاطرى ذلك الموقف ، أغرقنى شعور بالندم والألم من قمة رأسى حتى أخمص قدمى ، فأنتفض حزناً وخزياً . لقد بدأ اللقاء الثانى هادئاً على غير ما أراد أبى ، بدوت ، هذه المرة ، أكثر طواعية لأمى واستجابة ، وأقل التفاتاً بناظرى نحو أبى . أجلستنى أمى إلى جوارها ، وراحت تسألنى عن دروسى ، وعن امتحانى الأخير ومانلت فيه من الدرجات ؟ وإذ أفضيت إليها بأنى حظيت فى موادى كلها بدرجة « جيد » ، عدا « الحساب » الذى ساء حظى فيه فكان « وسطاً » ، بدا الغم فى محياها الجميل :

ـــ لم تكن ، ياعدنان ، لترضى فى الحساب بأقل من « جيد » . فكيف رضيت ، اليوم ، « بالوسط » ؟ أى شىء شغلك عن دروسك ياحبيبى ؟

وأبى ، كما أتخيله ، يقدحنى بنظراته العابسات ، وقد تعمدت أن أجعل جلستى بحيث أدير له نصف ظهرى .

وتفتح أمى حقيبة يدها البيضاء ، لتقدم إلىّ قطعة من « الشوكولاتة » المغلفة بالورق المفضض . فالتهمتها بلذة ، وأنا ماأزال مشيحاً بوجهى عن أبى . وأمى تسألنى عن مدى الرعاية التى ألقى فى بيت أبى ؟ فأثنيت على عمتى وما توليني إياه من الاهتمام .



ـ عمتك . . منصفة ، تقدر الظروف . إنها امرأة طيبة .

قلت : بدأ اللقاء الثانى هادئاً . وقد كان خليقاً به أن يمضى كذلك ، لولا أن قدر لأمى أن تعود إلى حقيبتها ، فتنقب فيها ؛ ثم تمد يدها إلى « بملبسة » كبيرة الحجم على غير المعتاد :

ـ دونك هذه ! قلت للبائع : أريد أكبر ملبسة فى دكانك ، لابنى عدنان !

هتفت ، وأنا أقلبها فى كفى :

ـ ما أكبرها ! .

ـ إن فى هذه الحقيبة حلوى لك كثيرة ، تأكل منها ما تشاء ، وتحمل معك الباقى لتتسلى به خلال الأسبوع .

فابتسمت فرحاً . ورفعت الملبسة الرائعة إلى فمى .

وهنا . . أحسست بأبى يندفع نحوى عدواً ، لينتزع الملبسة من يدى ، وهو يصيح فى غضب عنيف :

ـ أتنوين أن . . . تقضى على الصبى ؟ !

راشقاً الملبسة ، بعزمه كله ، إلى أقصى فناء المحكمة .

أجابت أمى ، وقد انبهر نفسها :

ـ أإذا قدمت إلى ابنى ، وحيدى ، ملبسة . . . . يعنى أنى أنوى القضاء عليه ؟ !

ولكن أبى يتابع فى سورة غضبه :

ـ أتنوين أن تسميه ، يا مجرمة ؟ ! !

لم أصدق أذنىّ ما سمعتا ! نظرت إلى أمى ، التى امتقع لونها، وهى تعلن :

ــ ما هذا الكلام ؟ !

لم أعد أدرى ماالعواطف والانفعالات التى جاشت فى صدرى : هل أرادت أمى حقًّا أن تجرعنى السم ، فى هذه الملبسة الرائعة ؟ ! أيعقل هذا ؟ ! ولماذا ؟ !

توجه أبى إلىّ :

ــ أمك حاولت الآن أن تسمك ياعدنان !

فقلت ، من خلال عبراتى التى انسفحت ، وكان لابد أن أقول :

ــ لماذا تريدين أن تسمينى ، يا أمى ؟

أخذت أمى تبكى بوجدان جريح ، وكبرياء قد أُذِلّت . . . تبكى أمامى ، بملء غريزة الأمومة فى جوانحها ، وتقول :

ــ أ أنا أسمك ، ياحبيبى ؟ ! شلت يدى . أنا أسم من يسمك !

فعاجلها أبى :

ــ إذن سمى نفسك ! (ثم اندفع يقول مزبداً) لما رأيت الصبى وقد خرج من حضانتك إلى الأبد ، نويت أن تقضى عليه بالسم فى ملبسة ! (وانعطف يعانقنى) إنها ملبسة مسمومة ، ياعدنان ! إنها مسمومة !

وتجمع حولنا الناس يتفرجون .

وأقبل المحامى ، محامى أمى ، من المحكمة على صراخ أبى . . .

فحكت له أمى ماكان ، وهى تنتحب ، حتى انعقد لسانها فلم تعد تقوى على الكلام .

قال المحامى فى مهابته يخاطبنى :

— إنها أمك ياعدنان ، التى حملتك فى بطنها ، وحضنتك سبع سنين . (ثم التفت إلى أبى) وأنت ياسيد : ماهذا الكلام! ما هذا اللغو ! أى أسلوب هذا الذى تتوسل به ؟ حقًّا ، إنك لغريب الأطوار !

وفى مساء ذلك اليوم ، رأيت أبى يختلى بعمتى فى غرفة ، فيتحلثان ، ثم مايلبثان حتى تعلو منهما الأصوات ... وعمتى تهيب به :

— دع المرأة فى حزنها . حرام عليك !

وهو يزيد فى عناده :

— أكرهها ! أكرهها ! لن أدعها تنعم برؤيته ، ولو ساعة فى الأسبوع !

وأدركت ، تلك اللحظة ، ماكنت أجهل .

* * *

— ... أماه ! كنت أناديك بلسانى . وأما الآن، فلم يعد لى إلا الورق أريق عليه عواطفى نحوك ، يا أمى ، بعد أن ترفعت عن دنيانا المفعمة بالآثام ، وصعدت إلى عالم غير عالمنا . سأعود إلى البيت، فلا ألقاك ، ولكنى أجد الظلام طبقات بعضها فوق بعض، لأن عينيك الطافحتين بالنور، قد شاء لهما الله أن تنطفئا. سأجدالسكون والوحشة

لأن قلبك العامر بحبي ، يا أمي ، قد كف اليوم عن الخفقان . . . .

المعلم مايزال يقرأ فى كتابه . وفى صدري، عالم زاخر بالعواطف الجياشة . لقد خيل إلى ، فى تلك اللحظات ، أن أمي ، التى عذبها أبى قبل يومين سلفا حتى أدمى فؤادها ، وعذبتها معه انسياقاً، هى التى رحلت عن دنيانا المفعمة حقاً بالآثام والشرور، وما هذا الرثاء الحزين إلا التعبير الصادق عن حزنى وندمى وعذابى .

أخذ صدرى يعلو ويهبط . وإذا الدموع تنحدر من عينى فى صمت . وإذا صوتى يرتفع ، لينفلت من لسانى ذلك النداء اللهيف :

ــ أماه ! . . .

فيكف المعلم عن القراءة ويتلفت التلاميذ نحوى .

ــ أحب أمى !

ثم وجدتنى أغادر موضعى بين رفاقى . مندفعاً بقوتى كلها إلى الباب ، معلناً فى صوت دامع :

ــ أريد أمى ! أريد أمى . . . .

منطلقاً إلى باحة المدرسة ، مجتازاً بابها . . . ورحت أعدو فى الشوارع فى اتجاه بيت أمى .

انطرحت فى حضنها ، وأنا ألهث ، والدموع تغسل وجهى :

ــ أحبك، يا أمى ! أريد أن أعيش بقربك . لقد أرهقنى أبى ، وهو يوغر صدرى عليك ، ويبث الكراهية فى نفسى ، أحبك ، يا أمى بقدر ما أكره أبى !

ضمتنى أمى إلى صدرها طويلا . . . ومسحت بيدها الحانية الرحيمة على رأسى . وقبلت جبينى ووجهى مراراً ، حتى اختلطت دموعها بدموعى .

ومن عجب أن سمعتها تُناشدنى ، بصوتها الرقيق :

ــ أَحِبَّ أباك يابنى ، ولا تضمر له كرهاً . . . فليس له فيما يفعل ، سلطان على نفسه !

وعرف أبى ما كان منى من بكاء فى قاعة الدرس ، وعرف أمر انطلاقى من المدرسة إلى حجر أمى . . . فانكفأ يصرخ بى صراخاً جنونياً مرعباً ، ثم أاوى على بالضرب ، لولا أن استخلصتنى عمتى من بين يديه ودافعته جاهدة إلى غرفة ، وأوصدت دونه ودونها الباب .

كفكفت دمعى ، لأسترق السمع والنظر من ثقب الباب .

وجدت أبى يقول ، وهو يصرف بأسنانه من غلّ :

ــ لم يكره أمه . مازال يحبها . لم يكرهها ، المغضوب! يرغب فى أن يعود إلى العيش معها !

ثم يلطم وجهه بكلتا يديه ، وعمتى تتشبث به لتحول بينه وبين أن يمعن فى ضرب نفسه ، وهى تصيح معولة :

ــ ارحم نفسك يارجل ! حرام عليك ! أتلفتَ أعصابى . أنت تُميتنى !

وعادت دموعى ، وأنا وراء الباب ، لتنهمر على خدى . ولكنه الآن ، بكاء ينطوى على عاطفة أخرى : استشعرت فى صدرى حباً

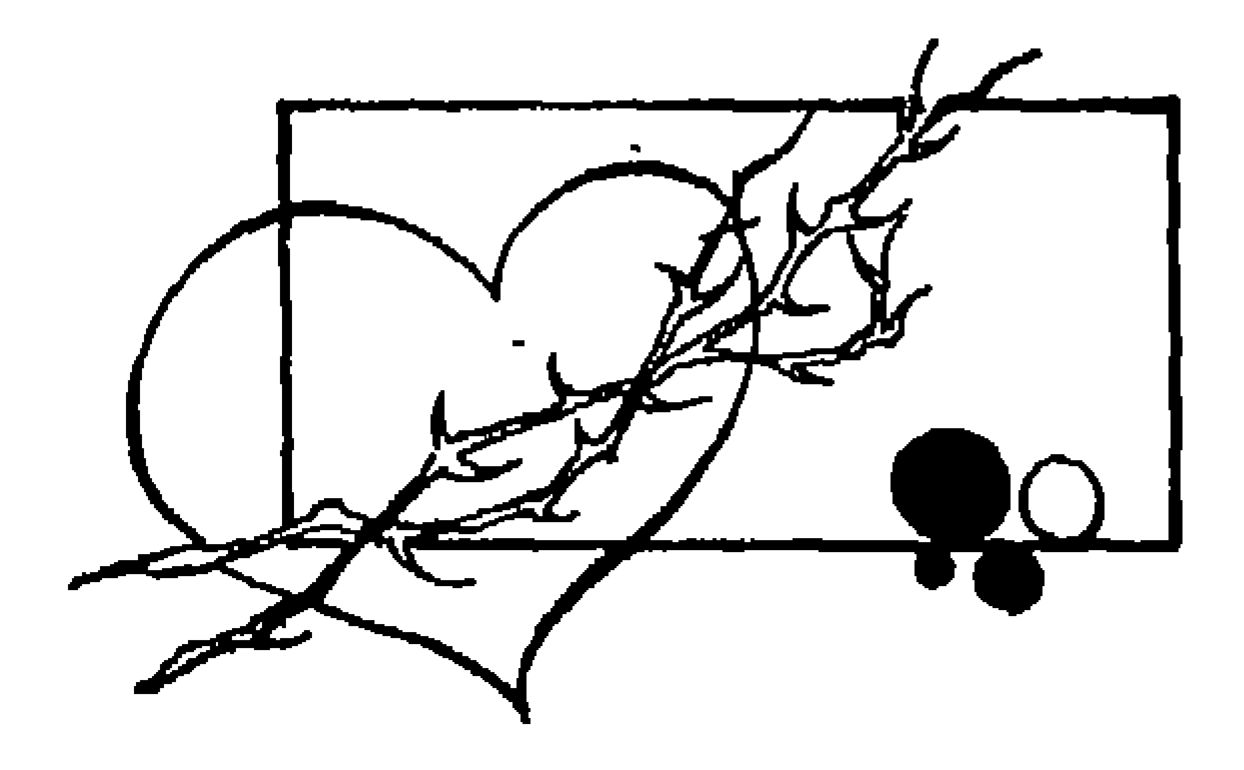
دافقاً للمسكين أبى ، وقد أدركت لِمَ لم تستطع أمى صبراً على العيش معه أكثر من أسابيع ، دون أن تضمر له شيئاً غير العطف والإشفاق ، ودون أن تتطلع إلى الزواج من سواه . . . .

وظللت مع أبى : أحبه ، وأرعاه ، وأداريه .

* * *

وقع لى ذلك ، فى يوم ربيعى ، فى عام من الأعوام ، وقد كان المعلم النحيل ، المرهف القسمات ، الذى تعلقنا به حبّاً ، يلقى علينا درساً فى حنان الأم .

رسالة غير ودية



دلفت « علياء » إلى مدخل المدرسة . وأحست وهى ترتقى الدرجات العشر الرخامية ، بقلق صغير ينبثق فى صدرها . وضغطت على المحفظة تحت ساعدها الأيمن ، محدثة نفسها : « إنها هنا ، قد دسستها بين أوراق كتاب ! » . أجل ، فقد ضمتها فى مظروف أبيض، ثم دستها بعناية بين أوراق كتاب القراءة . وأعلنت ، بينها وبين نفسها فى غل ، بينا هى تجتاز الباب العلوى إلى الصالة : سأنتقم منها . . . لسوف أبلغها رأيى فيها ، هذه المعلمة التى لا تعدل !

دخلت قاعة الدرس . رفيقاتها متوزعات بين المقاعد . وتوجهت نحو مقعدها ، الأقرب إلى الباب والملاصق للجدار ، وهى تفكر بألم : حتى مقعدى أُبْعِدَ هذا العام ، عن منضدة المعلمة : حين مُنحت « رجاء » ، بنت المعلمة ، المقعد الأول المواجه للمنضدة ! لماذا ؟ حطّتْ محفظتها على المقعد . حتى تكون فى وجه أمها ، فى عينها : « قومى يارجاء ، إلى اللوح وحلى هذه المسألة ! » ؛ « كيف نكتب كلمة : ماقتىْ ، يا رجاء ؟ هيا إلى اللوح فاكتبيها ! » ؛ «عوفيتِ يا سعاد ، أخذت فى الاستظهار عشراً على عشر ! » . . . رجاء ، رجاء ، رجاء ! كله رجاء ! !

اتخذت لسها . القلق الصغير ، تحسه الآن أكبر . الوجيب فى صدرها يتعاظم . ولكن . غلها سيشفى بعيد قليل، فى الدرس الأول الآتى ، فى الدقائق الأولى من الدرس ! لرجاء العشرات ، ولى أنا :

«علياء انتبهى إلىّ ، ياعلياء» ؛ «عليا! اصمتى ، يا ثرثارة!»؛ «علياء! قللى من حركاتك ، وكونى معى ، ياعلياء» ! «علياء ! هل تنوين أن تكونى ، السنة ، آخر البنات ؟» . . . هذه «النية» ، التى ليست عندى ، بدأت تثمر : غدوت بقدرة قادر ، متأخرة فى «الإملاء» ، التى ما أعرف أنى نزلت فيها عن العشر ! تعطينى ، فى امتحان أمس ، ثمانى ، وتعطى — الظالمة — بنتها عشراً ؟ !

وتأوهت ، متمنية : آه ، ياربى ، لِمَ لم تجعل من أمى ، واللدة التسعة ، معلمة مدرسة ؟ كانت رفعت الغبن عنى ! أنا لا أطالب منك ياربى ، أن تجعل أمى معلمة كى تمنحنى درجات فوق ما أستحق ، كما تفعل المعلمة مع بنتها ؛ ولكن لتمنع عنى الظلم فقط ! فأنا مجلة أعرف نفسى كما تعرفنى أنت ، ياربى ! كسرت لى المعلمة ، أمس درجتين فى امتحان الإملاء ، على غلطتين ما عودتنا أن تعتبرهما غلطاً : «انا» بدون همزة ! «اعنى» بدون همزة ! رفعت أصبعى ، حين تسلمت ورقتى منها :

— آنسة ، هذه ليست غلطاً !

وهى لا تلتفت إلى .

— آنسة خانم . . . آنسة خانم . .

وهى تتابع توزيع الأوراق على البنات . ودق جرس الانصراف ولم تفرغ من التوزيع . لحقتها ، وهى فى الصالة تسير مسرعةً ، وصوتى الشاكى يرتعش :

ــ آنسة خانم . . . أنا . . . أخذت ثمانى . . . انظرى ورقتى !

فردت على فى ضيق :

ــ أوه ، علياء ! دعينى الآن . . . فى همى

همُّها ، ابنها الذى طال مرضه ! ! وهمى أنا ، من يسأل عنه ؟ وهنا التفتت ابنتها إلى . أفلتت يدها من يد أمها ، وكرت نحوى :

ــ انظرى ، ياعلياء ، ورقتى . . . أخذت عشراً !

ــ أرينى ، رجاء . . . أرينى .

عشر ! يا الله ، هى ذى ، عشر نعم ! وأحست الغيرة ناراً تحرقها . عشر ! رجاء ليست أحسن منى فى الإملاء . ألمت عيناى بالأسطر . هى ذى : « انمى » بدون همزة ! مامعنى هذا ؟ و « انا » ، أين « انا » ، حتى أرى ؟ خطفت منى رجاء ورقتها ولحقت بأمها . وعلت أدراجى ، وأنا لا أبصر طريقى !

فكرت علياء فى حقد : خطأ مظنون تُكسر لى فيه درجتان ! وخطأ مماثل ، عند بنت المعلمة ، لاينال من درجاتها العشر شيئاً ! ! !

ثم تلمّست كتاب القراءة فى محفظتها ، بحثاً عن . . .

* * *

ودّعت « إلفت » طفلها بنظرة حزينة . وأكدت ، قبل أن تغادر البيت :

ــ الحبوب ، كل ساعتين حبة . لاتنس . والحقنة « أم سعيد » تأتيك فى العاشرة . هل أطمئن ، أبا الوليد ؟

أجاب زوجها بصوت يبعث على الاطمئنان الذى تنشد ، لولا

شائبة تشوبه :

— ياستّى ، أعرف مُهِمّتى : « واجباتى المنزلية » صرت أتقنها : الحبوب ! الحقن ! الشراب ! وأشياء أخرى . . . شفا الله صغيرنا « وليد » ، يا « أم الوليد » !

ثم رأته ينعطف على الطفل فى سريره ، هاتفاً فى حنان كبير :

— كيف حالك ، الآن ، يا حبيبنا وليد ؟ . (لم يجبه الوجه الشاحب بشىء) حمداً لله أنى بدون عمل ، كى أبقى إلى جوارك أُعنى بك ياصغيرى !

ودفعتْ بنتها أمامها فى رفق ، محاذرةً أن يلمح زوجها الدمعة التى طفَرَت من عينها :

— هيّا ، يارجاء . الوقت يوشك أن يدركنا .

وطغى عليها اللحظة حبٌّ لزوجها كبير ، حبٌّ هاس تحسه يبتلعها فى أعماقه فتنعم به ، حبٌّ عظيم لا يضارعه سوى عطفها على وحيدها العليل .

وفكرت : من تُراه كان حقيقاً بأن يُعنى بابنى فى غيبتى عن البيت ، او لم يكن زوجى فاقداً عمله ؟ ونزلت الدرج أمى ؟ أين أمى ، واحسرتى ؟ وأمه ، حماتى ، عجوزٌ غير قادرة وغير صابرة . لم يكن بدّ ، إذ ذاك ، من ممرضة .

— هاتى يدك ، يارجاء .

وأخذت تقرع الرصيف بقدميها . ما بالها تُغِذّ السير معجلة ؟ إن فاتها الوقت ، دقائق من الوقت ، فإن المديرة والبنات أعلم بحالها .

والمعلمات ، زميلاتها ، مافتئن يسألنها عن صحة وليد؟ تجيبهن : «بخير» «إن شاء الله أحسن»! ولكنه لايكاد يتقدم . تتحسن حاله ، ثم تتردى . سألتها معلمة الصف السادس ، التى التحقت بالمدرسة حديثاً إذ علمت :

ــ ومن يظلّ فى البيت يرعاه ؟

أسرعت المديرة تجيب نيابة عنها :

ــ زوجها « موظف متقاعد » .

وأطلّت من عينى المعلمة الجديدة نظرة ذات معنى . حسبت ، لابد ، أن أبا الوليد متجاوز سن الستين ! فمالت المديرة إلى أذنها تهمس . فزايل العجب الوجه الجديد :

ــ هكذا . وأنا قلت فى نفسى إنها شابة لا تتجاوز الثلاثين ! هو متقاعد شاب ، إذن .

بلغت فى مسيرها الساحة . تشبثت بيد ابنتها ، وتلفتت يمنة ثم يسرة ، قبل أن تجتاز الشارع الوسيع . كم ضاق « الشاب » ذرعاً بحياته فى البيت ! كم تشكّى ، وتلمّر ، وجعل منها مستنزفاً لنزقه !

ــ هكذا الدنيا تسير ! (يقول فى مرارة) رجل كالحصان يقضى ساعات نهاره فى البيت ! وزوجة شابة تسعى وتعمل فى مدرسة ! (ثم يعلن فى انكسار) طقّ عقلى ضمن أربعة الجدران ، يا ألفت ! تأخذين أنت رجاء ووليد فى الثامنة صباحاً ، وأظل وحدى ! (ويهيب بها مترفقاً) أعطينى كتباً ، يا أم الوليد ، هاتى . نزلى كل ما فى « السقيفة »

من كتب قديمة ومجلات ، فقد أتيت على ما فى الخزانة هنا . حسن ، سأصعد إلى السقيفة غداً . . . (ويتجه إلى أعلى) سبحانك ربى ، لو تمنحنى أربعة أمثال راتبى التقاعدى الذى أتقاضاه وتقول لى : « اجلس فى بيتك بلا عمل » ، لرفضت النعمة ، وفضلت الربع الضئيل مع العمل خارج البيت ! (ثم ينكفئ إليها مداعباً فى مرح) أم الوليد، أم الوليد ، إيه ، ولا يهمك ، ما دامت الصحة فى إهابنا فأجدر بنا أن نكون سعداء برغم كل شيء . . . سعداء . . . سعداء . . . (ويصفق كالسعيد ، مطلقاً ضحكة عالية ، ويقوم إليها يحملها على زنديه ، على مشهد من رجاء ووليد !) .

كآبة وفرح ! غضب ورضى ! عبوس مقطب وضحك مجلجل أحياناً ! . . . أحوال متناقضة تنتابه فى اللحظة الواحدة ! باتت تخشى عليه أن يجن ، أن « يطق » عقله » كما يعلن على الدوام . ثم وفد مرض وليد ، فتغيرت أحواله تغيراً واضحاً . وجد أمامه قضية كبرى يعيش لها وقته كله : العناية بصبيِّنا الأوحد . آه ، يا وليد ، من أين جاءتك هـــذه العلة ، ياحبيبي ؟ تعرضك لما يؤلم ، وتمتحن جلدنا وقوة احتمالنا . أنا من جهتى لا أعصاب عندى . أنا مرهقة حتى العظم . أنا إنسانة فقدت اتزانها . هم وغم ، وعمل فى المدرسة يومى لا يفتر ، وعمل فى البيت : خدمة منزلية ، ثم تصحيح أوراق التلميذات ، وظائف ومذاكرات وامتحان . . . أحرى بى أن أكون « آلة » ! واستدركت : ولكنه يعمل . ولكنه يساعدنى ، أقول الحق : إنه يساعدنى . وتبسمت :

ألم يعمد أخيراً إلى غسل الصحون فى المطبخ ؟ وهو الذى كان يزعق فى رهطه صوتًا فيتبسّون ! طاعة ونظام كان يفرضهما بقوة شخصه. وهو الآن فى المطبخ ، يغسل القدور !

لقد أقلع هذه الأيام عن مطالعة الكتب ، فقد وجد فى البيت سلسلة من « الواجبات » يـقضّيها . ما تبقى له من الوقت يمضيه بصحبة البنات : بصحبة أوراقهن . شغلةٌ يسيرة ، إلا أنها مملـّة فى رتابتها . ولكنها — واعجباه ! لا تبعث عنده إملالا . بل إنه ليُهيب بها : « أم الوليد ، هاتى الأوراق أصحّحها . دعينى أعطى الدرجات لبنياتك . وجدت فى عملك هذا سلوى ! » . ويستضحك ، ثم يشترط عليها شرطًا : « أنا ، فى الليل ، لا أصحح ! » ، فإن السهر عنده أمام « التلفزيون » أمر يسلى ، تزجية طيبة لساعات سأم . « تتركين لى الأوراق على المنضدة هنا، أصحّحها نهار غد » . لا بأس . وتبسمت فى قرارة نفسها ، وهى تصعد هذا الشارع الفرعى . إنه يمرّ على أوراق تلميذاتها الاثنتين والأربعين فى « سويعة صباح » ، كما يقول . . . . لتستردّها منه ظهراً فتحملها رجاء معها إلى المدرسة .

— ماما . اشترى لى كعكة من هذه الكعكات الساخنة ، يا ماما !

دنت وإياها من البائع الصغير :

— خذى لك واحدة ، يا حبيبتى .

* * *

أرسلت علياء ، وهى فى مجلسها ، إلى منضدة المعلمة نظراً خاطفاً :

هى ذى هناك ، رَمَتْها بجوار سجل الدوام ، دون أن يدرى بها أحد !

وفكرت ، والصمت مُطْبِقٌ على قاعة الدرس : سيشفى غِلّها ! ولكن..

واعتصر الحزن فؤادها : الدرجتان فقدتهما على كل حال ، خسرتهما فى أولى جولات هذا الامتحان ، ولسوف تخسر درجات أخرى عداهما ، فتتفوق عليها فى الامتحان الأول رجاء بنت المعلمة! و «أسامة» فى البيت ، أخوها أسامة الشيطان ، لن يكفّ عن معاكستها كلما نالت درجة أدنى ! كانت مساء أمس ، فى غم واحد حتّى بلغت البيت . لقد حكت لإخوتها ما نالها من المعلمة من سوء . فوجدت عندهم تعاطفاً طيباً . إن «منيرة» لتتذمرّ :

ــ يالطيف ، معلمتكم ما أظلمها !

فكررت شكواها من خلال دموعها :

ــ إنها لا تعدل ، لا تعدل ! ترى الكلمة فى ورقتى خطأ ، وتراها فى ورقة بنتها صحيحة ! وقرر «ودود» الصغير بادى الحزن :

ــ معلمتك ، يا دادا . . . لن تدخل الجنة !

وهتفت «سميرة» فى ارتياح :

ــ الحمد لله أن بنت معلمتى كبيرة ، فى الصف السادس !

ولكن أسامة الشيطان ينصرف ، فى أثناء ذلك ، إلى محفظته ينقب فيها . قرأت ، فى بادئ الأمر ، فى عينيه شماتة صامتة لم يعلنها لسانه ، وقد كان خليقاً به أن يطلقها عالياً وهو «أشطن» شياطين البيت ! تحبّ إخوتها الثمانية ، عداه ، هذا القوىّ السفيه الذى يشتمها ويعبث

بها ويسومها العذاب . إنها تحدث رفيقاتها عنه ، فترثى رفيقاتها لحالها . بتن فى المدرسة يعرفن أخباره وحكاياه . تودّ لو تشكوه إلى أبيها ، ولكن أباها قلما يكون فى البيت حين يوقع أسامة عليها الأذى . تشكوه إلى أمها ، ولكن أمها مشغولة بإخوتها الصغار ، وإنها لترد عليها فى ضيق : « اتركينى ، يا علياء ، أما ترين شغلى ؟ تسعة أولاد فى رقبتى » . فإذا أقبلت عليها مرة باكية من صنيع الشيطان بها ، اكتفت بأن ترفع عقيرتها : « أسامة ، يا شيطان ! يا عفريت ! دع علياء وشأنها ! » ، فلا يزيد هذا « التقريع » الشيطان إلا تماديًا ، إنه يقول فى همس : « أوخ ! ماما ما قالت لى أى شىء ! أوخ ! » . تتمنى لو أنها « صبى » ، إذن لكان فى وسعها أن تقدر عليه ، على الرغم من أنه يكبرها بعام . تكرهه . تحب سائر إخوتها وتكرهه . يسميها « الخنفسة » ! لا يناديها إلا بالخنفسة ! إن شاء الله يموت ، لن تحزن عليه مقدار ذرّة !

وأدارت فى وجوه البنات نظراً .

أسامة أخرج من محفظته ورقة ، هى ورقة امتحان الإملاء الذى أجرى فى يومه الماضى . قال لها :

— لتنظرْ عيناك ، إذن يا خنفسة خانم ، إلى ما حصلتُ عليه من الـ . . .

قرأت . إنها عشر !

أعلنت فى حزن :

— وأنا . . . لو كانت المعلمة أنصفتنى ، لكنت أخذت عشراً .



فتصدّى لها بوقاحته التي تعرف :

ــ أنصفتك ما أنصفتك . . . ثمان أنت وأنا عشر : . . أنت ثمان وأنا عشر . . . أنت ثما . . . .

أخذ يكررها . . . فإذا هي ذات « نغم » ! وإذا النغم ينقلب بين شدقيه إلى « أغنية » ! وإذا الأغنية تصاحَب بتصفيق من يديه يصم الأذن ! ثم أخذ يرقص أمام عينيها ، رقصَ وحوش الغابة ! ! وتكاد هي تنشق من الغيظ ، وقد تمثلته شيطانًا حقيقيًا هذه المرة ، وتمنت لو تنشب أظافرها في قلب عينيه !

قامت باكية إلى أمها . . . فوجدت على ثديها خلدون الصغير يرضع ، مطبقًا جفنيه . وبدلاً من أن تأخذ أمها بناصرها ، صرخت بها :

ــ أيقظت الصبي ، الله يهدك ، أيقظته وأنا طلعت روحي في تنويمه ! (ثم نادت) أسامة ، دع أختك ، وانصرف إلى دروسك ، يا رذيل ! الله يغضب عليك ، إلهي وسيدي ! والله لأشكونّك إلى أبيك ، انتظر !

وإلى متى الانتظار ؟ وماذا في وسع أبيها أن يفعل ؟ يضربه إن فعل . ولكن من ذا الذي يسعه أن يرفع عنها حيفًا وضعته على كتفيها معلمتها : أم رجاء ؟!

بكت طويلا . . .

وعاودها البكاء ساعة أوت إلى فراشها . غم ، ثم غم آخر : المعلمة في المدرسة ، وأخوها في البيت ! لم يكف الشيطان عن تعذيبها طوال السهرة . حتى إذا كفّ ، لم يكن لذلك « النغم » الكريه أن يزايل خاطرها !

نغم أخذ يضرب فى رأسها ، يضرب وسط عالم مشوّش يتراءى لها . . . انقلب النغم إلى ضرب متواتر على طبل كبير . . . وجدت نفسها فى غابة . . . ورأت متوّحشين يدقون الطبول ، يقرعونها بجنون ، فيتردّد فى أرجاء الغابة ذلك النغم ! ورأت وحشاً فى صورة أسد ، يرقص على قرع الطبول . . . كانت تعتلى شجرةً تطلُّ منها على الوحش فى رقصه . . . . لم تحسّ فى صدرها خوفاً أى خوف ، ما أحسّته كان حقداً ، حقداً كبيراً ، أخذ ينمو فى داخلها وينمو ، والوحش يتابع الرقص على قرع الطبول . . . انتزعت من الشجرة التى تعتليها غصناً . . . استكّنته . . . نزلت به إلى حيث الوحش يرقص ، فأقعى أمامها راكعاً . . . همت بضربه بما فى يدها ، فازداد الوحش خنوعاً : « أنا عبدك الطيع ! » . . . ولكنها أهوت عليه بالغصن . . . فإذا الغصن فى يدها يستحيل إلى سيف يقطع رأس الوحش فيتدحرج بين قدميها ! وإذا هو رأس . . . أسامة ، أخيها !!! يقول معاتباً : « هكذا ، يا علياء تقتلينني ؟! » . . . وتنهار فوقه تنتحب بصوت قد انطفأ فى حلقها ، فهى — حتى هى — لا تسمعه . . .

وتفيق من نومها مذعورة !

وجافاها ، من ساعتها ، النوم . ظلت فى فراشها ترتعد من الخوف ، وقد تراءى لها أنها أذنبت تجاه أخيها إذ انهالت عليه بالغصن ، وبالسيف ! واستدركت : ولكن الذنب ، آه ، يا ربى ! إنه ذنب المعلمة التى لا تعدل . قتلتُ أخى فى المنام ! ليت المقتول . . . ابنها العليل !

فأخى لم يظلمنى فى المدرسة ، وإنْ سامنى العذاب فى البيت . وخطر لها، مع إطلالة الشمس من شباك غرفتها : ماذا لو كتبتُ إلى المعلمة رسالة؟ رسالة تعبر عن رأيى فيها ، أضعها فى صندوق البريد ؟ أقول فى مستهلها : « انا لا أحبك يا آنسة . انا (تكتبها بدون همزة!) أنا أكرهك كثيراً » .

راقت لها الفكرة . نعم ،ماذا لو كتبت إلى معلمتها رسالة ؟ تقول فيها : « بنات الصف يكرهنك . كلهن يكرهنك مثلى » ، بل إنهن يكرهنها أكثر منها ! « قتلت أخى من أجلك . . . أنت بتحبي بنتك رجاء وما بتحبينا » . . .

هى ذى الجمل تتوارد على لسانها . هرعت إلى ورقة تدون فيها الكلمات قبل أن تضيع . « تعطى بنتاك العشرات فى الإملاء ،وتعطينا تسعات وثمانيات وخمسات و . . . . » . . . . « قتلت أخى أسامة من أجلك » ! وعاودها الإحساس بالندم ، فخطت يدها : « ابنك إن شاء الله ما يشفى، إنشاء الله ما يطيب » ! لقد انتقمت . وثنت الورقة ثم تلبثت لحظة : لم يشف غلها . اختتمت الرسالة : « ابنك المريض إنشاء الله يموت » . . . أحست راحة أكبر . وضمتها فى مظروف أبيض .

صحت علياء من خواطرها . وأرسلت من جديد نظرة خاطفة إلى منضدة المعلمة . الرسالة هناك .ستقرؤها المعلمة فور دخولها . لم ترسلها إليها بالبريد . ذلك طريق يطول . ولكن . . . واستشعرت فى داخلها خوفاً : ألم تكن الرسالة قاسية ، تبًّا لها ! إنها لقاسية . لِمَ أضافت العبارة الأخيرة ؟ وتعاظم الوجيب فى صدرها :

أطلت المديرة من باب الصف :

ــ ألم تأت إلفت خانم ؟

ابتهلت ، وهى فى مكمنها : يا ربى ، ليت المديرة لا تلتفت إلى المنضدة !

أجابت العريفة :

ــ كلا ، آنسة .

عادت تتساءل ، فى ندم عظيم : لم كتبتُ الرسالة ؟ حين كانت المديرة تغيب وراء الباب . هل تكره البنات المعلمة ، حقاً ؟ هل أكرهها أنا ؟ إننى أحبها . والله أحبها . فهى أحلى معلمات المدرسة . ليتنى أستطيع استرداد رسالتى اللعينة . تعذيب أسامة هو الذى ساقنى إلى كتابتها ، والمنامُ الأسود ! المعلمة تحب ابنتها ، وما فى ذلك ؟ أو أن أمى معلمة الصف لأحبتنى دون البنات . وما فى ذلك؟ ولكن أمى ، واحسرتاه ، تهملنى ! المعلمة تظلمنى : همزتان بدرجتين ! وبنتها تأخذ العشرة كاملة . لماذا ؟ لماذا ؟

* * *

رنتْ إلفت ، من بعيد إلى باب المدرسة الحديدى الكبير : هو ذا يفغَر فاه لابتلاعها طوال ساعات أربع صباحية ! وفكرت : ما أقسى بعْدَ الأم عن بيتها عندما يكون طفلها ، وحيدها ، طريح الفراش ؟ يُعنى به . أبوه يعنى به كل ساعتين حبة . وأم سعيد ، الممرضة ، تعطيه الحقنة فى الساعة العاشرة . « مهمتى فى البيت صِرْتُ أُتقنها » . يا له من زوج عطوف ! تحبه . يهتم بها وبولديه . يحرص على أن يأخذ

نصيبه من المسئولية كاملا . ويأخذ ، منذ أمسى بلا عمل ، أكثر من نصيبه ، طائعاً مختاراً . هو الآن ، أو بعد قليل . . . وتبسمت بسعادة ، مكب على أوراق الحساب يصححها . إنه ليقرأ : باع فلاح ٩٧ بيضة ، سعر البيضة . . . . هذه المسألة عليها أربع درجات . تستحق منها ، هذه الورقة ثلاثًا ، أو درجتين ونصفاً فقط . دقيق فى تقديره . بل إن يده أميل إلى الشدة ! هل تراه يظلمها فى هذا العام ، تلميذاتها ؟ لا بأس ، ما دام يزن أمورهن جميعًا فى ميزان واحد . المساواة فى الظلم عدل . دقيق ونشيط . أوراق أمس تتسلّمها منه فى ظهيرة اليوم مع جداول الدرجات ، معدّة للتوزيع . . . لا تحتاج إلى غير قلمها الأحمر ، تمرّ به عليها ورقة ورقة ، لتمهرها بتوقيعها !

وابتلعها الباب الكبير . إنها لتشفق عليه من التعب . ولكنه العزيز ما يفتأ يعلن : « يا ستى ، أقول لك هذا عملٌ يسلينى ، مادمت أؤديه فى النهار . . . إنه لعمل يسلينى ! » .

وصعدت الدرج ، وإلى جوارها بنتها . يسليه ، هكذا يقول . ولكنها تجد نفسها ، برغم كل شىء ، مندفعة إلى مشاركته التصحيح . أوراق الإملاء ، التى وزعتها يوم أمس ، لم تدعه يصححها وحده . لقد حرصت على أن تصحح نصفها فى تلك الليلة ، وأكمل هو النصف الآخر فى ضحى اليوم التالى . وكان من حظها أن مرت بها ورقة . . . سعاد . وفكرت : لابد أن شدّته قد نالت من « حقوق » نصف البنات ، واستنقذت هى كامل حقوق النصف الآخر ! بعضهن شكون إليها ،

أمس ، إجحافاً فى تقدير درجات الإملاء ! ثلاث تلميذات أو أربع ، أوه ، حقهن عليها. كان الأولى أن تصحح هى الأوراق كلها ،أو تدعه هو يصححها كلها . من الخير أن توزن أمورهن بيد واحدة :

واجهتها ، فى الصالة ، ساعة الجدار الكبيرة : لقد تأخرتْ دقائق سبعاً . وأعجلت خطاها عبر الصالة نحو صفها. لا جلبة تصدر عن تلميذاتها . عاقلات ، يقدرن دواعى تأخرها .

ولامس سمعها نداء ترسله المديرة خلفها :

ــ رجاء ، رجاء !

لحظة كانت تجتاز ، هى ، الباب فى دخولها قاعة الدرس :

ارتفع صوت العريفة :

ــ قيام .

وأشارت لهن بالجلوس .

* * *

سألت المديرة :

ــ كيف حال أخيك وليد اليوم ؟

أجابت رجاء :

ــ أحسن قليلا .

ــ عليه العافية .

ــ الله يعافيك ، آنسة .

وتراجعت رجاء إلى الوراء خطوتين . ثم استدارت ، وهرعت إلى قاعة الدرس .

نظرت علياء إلى بنت المعلمة فى دخولها القاعة بعد أمها . كان الترقّب قد ملأ فؤادها خوفاً . وفكرت : رجاء أخت وليد . وهى ، فى الصباح ، تمنت الموتَ لوليد ! آه ، كم كانت قاسية ! إن رجاء بنت صالحة . وأمها معلمة طيبة . آه ، يا ربى ، ماذا جنيت ؟ المعلمة تخلع معطفها ، هى ذى ، لم يأنْ لها أن تقع عينها على الرسالة اللعينة . أخوها هو السبب . عذّبها ليلة أمس ، فاندفعت تخطّ هذه الرسالة الحمقاء . ليت الأرض تنشقّ . . . ليت المنضدة تنشق وتبتلع الرسالة . يا ربى ، ماذا فعلت يدى؟ إن المعلمة تقلّب الرسالة فى يدها ! وامتلأ قلبها من جديد رعباً أسود .

عجبت المعلمة من أمر المظروف الملقى على المنضدة . وجدته مغلقاً ، وغفلا من العنوان . فضته بفضول .

علياء ترقب صنيع المعلمة . سلّت المعلمة من داخل المظروف ورقة . التلميذات معلقات الأبصار فى المعلمة ، وهى تقرأ شيئاً ما فى يدها . علياء تحس هوّة فى داخلها تتفتح . محيا المعلمة الجميل يعبس . الهوة فى داخل علياء تتّسع . والعبوس ينتشر فى المحيا الجميل .

رمت المعلمة الرسالة فى غضب . وخبطت بقبضتها المنضدة ، صائحة بصوت لم تألفه هى نفسها من قبل :

— من منكنّ كتبت هذا الكلام ؟ !

لا جواب . صمت غائر ابتلع قاعة الدرس ومن فيها .

— أية لعينة فعلت هذا ؟!

رجاء ، بنت المعلمة ، رأت الغضب يشتعل فى وجه أمها ، فخشيت عليها من فرط الغضب ، وأوشكت أن تبكى خوفًا عليها. وعلياء ، هى أيضًا ، خشيت على المعلمة، ولكنها خافت على نفسها كذلك : لقد أوشكت أن تعلن . . . .

المعلمة تصيح فى هياج :

ـ من القبيحة التى كتبت هذا الكلام القبيح ؟ لتعترف من تلقاء نفسها ، وإلا عاقبتها أشنع عقاب !

أوشكت علياء أن تعلن : أنا . . . أنا . . . يا آنسة . . . أنا أخطأت . . . اغفرى لى . . .

المعلمة تتابع صياحها :

ـ أقول : لتعترف، ذلك خير لها ، وإلا أخرجتها من مقعدها جرًّا . . . وشددتها من شعرها، كالكلبة الجرباء، إلى غرفة المديرة ! يمكننى أن أعرفها من نظرة واحدة !

خاطبت علياء نفسها فى فرق عظيم: يا ربى ! لماذا فعلت ذلك؟آه إنها ستعرفنى ؟ هل أعترف ؟ ؟ والهوة فى داخلها أمست، الآن ، هاوية !

أخذت المعلمة الرسالة بعصبية ، تمر عليها شواظ عينيها . وتوقفت :

ـ من منكن لها أخ اسمه . . . أسامة ؟

وأيقنت علياء أنها ساقطة فى الهاوية ، لا محالة .

ارتفع ، من ورائها صوتان أو أكثر :

ـ آنسة ، لعلياء أخ . . . لعلياء أخ اسمه أسامة ... علياء ... علياء . . . علياء . . .

سقطت علياء فى الهاوية .

اتجهت إليها المعلمة :

ــ إذن ، فأنت ؟!!

ــ . . . . . .

ــ أنت ! أنت ! وجهك اللئيم يدل !

فتحت علياء فمها :

ــ إنه أخى . . . هو الـ . . .

المعلمة خرجت عن طورها :

ــ ابنى . . . إن شاء الله ما يشفى ؟؟

ــ أسامة . . هو الـ . . .

ــ إن شاء الله ما يطيب ؟؟

ــ . . . .

ــ وحيدى وليد إن شاء الله يـ . . . ؟؟

ــ . . . .

ــ تموتين أنت ، يالئيمة !

أطلّ هنا ، على القاعة وجه المديرة . تلفتت البنات إليه ، وراء الزجاج فى ذعر . وعلياء لمحته أيضًا ، ولكنها لم تتبينه تمامًا . لقد غامت الدنيا فى عينيها ، وثقل رأسها ، ثم . . . سقط إلى الخلف ! المديرة تسأل بصوت اجتهدت أن تجعله خفيضاً :

ــ ما الخبر ، يا إلفت خانم ؟

اتجهت المعلمة بنظرها إليها :

ــ آه ! (وارتجف صوتها) أعلمهن وأشقى ، لتكتب إلى إحداهن . . . (وأحست فى جسمها إعياء) رسالة تلقيها على المنضدة هنا . . . تتمنى فيها الموت . . لطفلى العليل !

قالت المديرة :

ــ هدئى أعصابك ، يا إلفت خانم . من التى فعلت ؟

لم تجب المعلمة . كان الإعياء قد سرى فى جسمها كله : حين كانت البنات يجبن على سؤال المديرة :

ــ إنها علياء ، يا آنسة . . . علياء . . . علياء . . .

أدارت المديرة عينيها صوب علياء ، فوجدتها . . . وجدت رأسها ملقى إلى خلف ، مستنداً إلى الجدار ، وقد كسا وجهها شحوب أصفر. فما كان منها إلا أن أشارت إلى إحداهن معجلة :

ــ نادى « الآذنة » ، هيا ، هيا !

وصدرت عن تلميذات الصف همسات ، تعالت ، ثم انقلبت إلى صرخات خوف صغيرة :

ــ أغمى عليها . . . علياء . . . أغمى عليها . . .

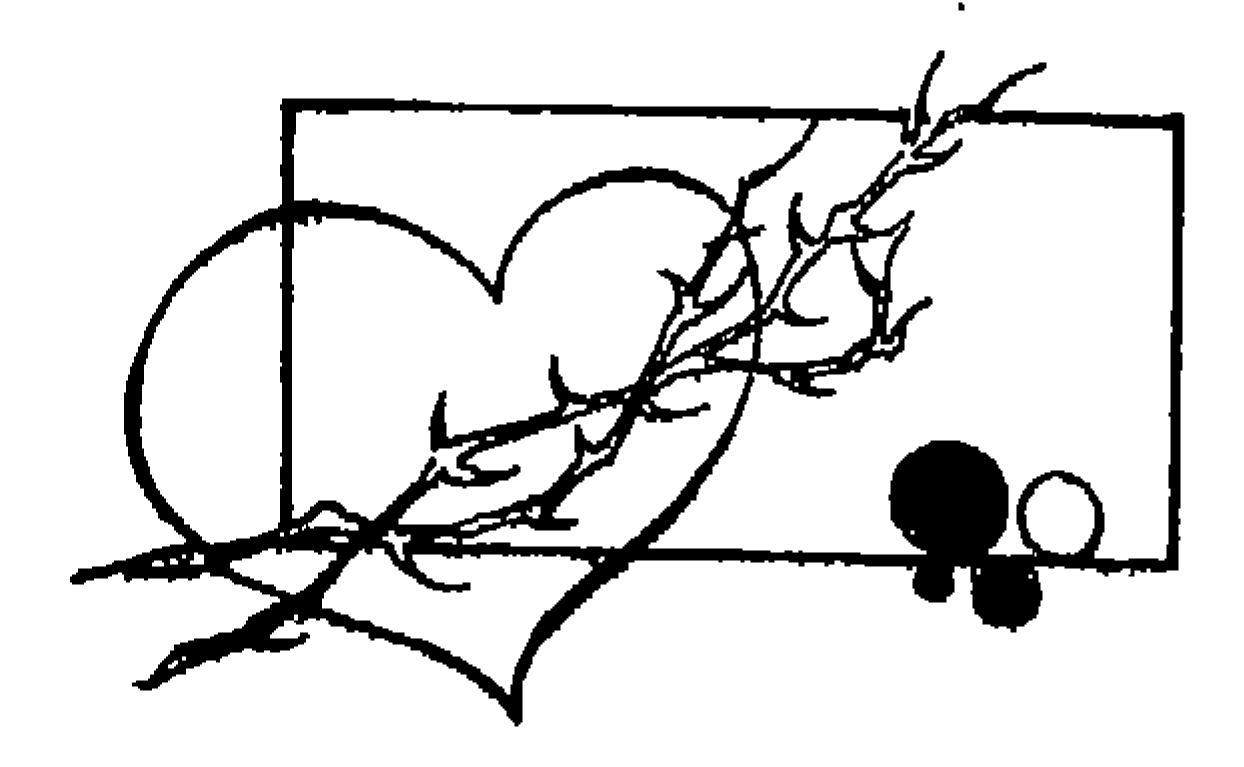
والمعلمة ، هناك . . . تهالكت على الكرسى ،

وقد غسل وجهها فيض من دمع . إنها تشهق وتقول :

ــ ليتنى أموت . . . ليتنى أموت وأستريح !

ثم سقط رأسها ، هى الأخرى ، على المنضدة ، وقد غامت الدنيا فى عينيها :

وقفة على باب الغيب



لم أكد أدخل باب منزلى ، حتى كانت بنتاى الصغريان تتطايران نحوى كفراشتين مسحورتين ، وتتصايحان فى بهجة غامرة :

ــ ماما فى المخاض ! ماما فى المخاض ! . .

وسرعان ما عاودنى مع هــذه البشرى ، قلقٌ بت أعانيه منذ أخذنا أهبتنا لاستقبال وليدنا الجديد . . .

رفعتُ الصغرى بين ذراعىّ ، وانعطفت أقبل خدها ، وأهمس فى أذنها بما جريت على ترديده لها فى الفترة الأخيرة :

ــ لن أحضنك ، بعد اليوم ، يا « إيمان » . فأنت لن تعودى ، منذ الليلة ، صغرى أخواتك ، سنحمل على صدورنا أختك الجديدة : « منتهى » !

كان قد مضى على زواجى ثمانية عشر عامًا ، أنجبت خلالها بنات ثلاثًا ، دون أن أوفق إلى إسعاد الأسرة بأخ صبى واحد !

ويلغنى صوت « بسمة » العاتب :

ــ لا تقل « منتهى » ، يا بابا ! سيبعث الله إلينا بأخ يسعدنا نسميه « تمام » !

وتدفقت فى صدرى موجات من ذلك القلق الحادّ .

ــ لا يهم ، يا بنيتى ، إن جاءتنا منتهى ، أو أقبل تمام. المهم أن تضع لمك بالسلامة .

كنا قد كففنا ، منذ سنوات عشر ، عن إنجاب الذرية ، مخافة أن يتجدد إخفاقنا فى تقديم الوليد المرغوب لأخوات قد أضنتهن الأشواقُ

لاستجلاء طلعته البهية .

تسربت إيمان من بين ذراعى ، لاحقة بأختها . حين كانت ابنتى الكبرى ، تطل على لتخبرنى :

ــ توجعت أمى منذ ساعة ، فأسرعت أهتف إلى القابلة .

تمتمت ، وأنا غارق فى تأملاتى :

ــ حسناً فعلت يا ابنتى .

ــ وهى الآن فى طريقها إلينا .

أطريت همتها :

ــ أنت ، الليلة ، سيدة البيت ، يا « أمل » .

واجتزت الباب إلى حيث الأم فى سريرها ، وقد أحاطت بها : بسمة وإيمان ، عن يمين ويسار .

ــ كيف حالك ، يا « أم أمل » ؟

رنت إلىّ ، ترد تحيتى بابتسامة شاحبة .

ــ شدّى عزائمك ، يا أم البنات الحلوات . وامنحينا ، الليلة ، بنتنا الظريفة الرابعة . سنكون بها سعداء جداًّ .

فأغضتْ بناظريها ، وهى تكتم توجعاً تحرك فى أحشائها . حين انحنت عليها بسمة ، تقبل بطنها من فوق اللحاف ، ثم تدعو برجاء حار :

إن شاء الله يأتينا تمَّام، يا ربى ! نحن بحاجة إلى أخ ! يكفى أننا ثلاث بنات .

وأفعم هذا الدعاء الواله قلبى حزناً وخوفاً : ما يكون حالهنّ إن بلغ

عددهن ، آخر هذا اليوم ، أربعًا ؟!

ولحقت بنا أمل ، لتطرح ما بين يديها على السرير : ملابس الوليد المنتظر . فاندفعت الصغيرتان تنقبان فيها ، وقد علت منهما أصوات الفرح . هى ذى إيمان تأخذ أحدها ، لتنشره على صدرها ، هاتفة بشوق يذكو فى عينيها :

ــ بعد ساعة . . . يلبس أخونا قميصه هذا !

وتضيف بسمة ، مادة ذراعها بمرط طويل :

ــ وتزنّره القابلة بهذا الزنّار !

أسرعت أمل إلى زجرهما :

ــ اتركا « الديّارة » . لا تعبثا بها ، أقول لكما !

فكرت : وأية سعادة جدير بها أن تغمر قلوب أفراد الأسرة ، إذا ما استجاب القدر ، أخيراً ، فوافانا بتمام ؟ !

وحدقت بزوجتى ، التى تتوجع فى صمت : بدا لى القلق ، الذى أعانيه ، ماثلا فى قلب عينيها ولـكنه عندها مشوب بما يخيل إلى أنه توسل و رجاء .

* * *

انطلقت إلى حديقة المنزل . كان القمر البدر يهيل ضوءه على أزهار الحديقة وأشجارها والبركة الرخامية . وكان يرين سكون فى هدأة الليل. أى تعلق ، تشهد عيناى فى بناتى ، بأخ لهن يضفى على الأسرة جوًّا من السعادة الحقيقية !

اقتعدت حافة البركة : أنا سعيد ببناتى الثلاث سعادةً لا حدَّ لها : هنّ صديقاتى ، وأنا لهن الأخ الأكبر . تزوجت فى سن مبكرة ، وأنجبتهنّ على مدى ثمانى سنوات . شببن عن الطوق ، وكبرتُ معهنّ ولكنى ما كبرت على صداقتهن . لم يخامرنى قلق من توارد هنّ واحدة بعد الأخرى (بعد أمل بسنوات خمس وَلدت لنا بسمة ، ووافتنا إيمان بعد عامين اثنين) . . . ولكنّ « للمجتمع » رأياً آخر : كان بعض أصدقائى يغدقون على عطفاً ورثاء ، هما عندى أشدُّ مضاضة وأقسى من عذاب النار . تأخر مخاض اليوم أسبوعين عما قدر له من موعد . بعضهم يسألنى :

ــ وأين مولودكم الجديد ؟ نراه قد تأخر !

فأجيب مصطنعاً نوعاً من الدعابة :

ــ والله ، لقد وصلتنا منه « برقية » روحية تقول إنه قد أجل قدومه حتى الشهر القادم ! !

ويتضاحك الصحاب ، قبل أن ينبرى أحدهم « مطيباً خاطرى » :

ــ فى علمى أن الجنين إذا أطال فى بطن أمه . . . فهو الصبى ، لا محالة !

ويتولى عنى الجواب من يحمل وجهة نظرى :

ــ إن الصبىّ والبنت فى هذا الزمان ، صنوان : يدرسان معاً ، يعملان ، يبرعان ، ينبغان . . والمجتمع الجديد يتيح الفرصة لهما بمقدار واحد !

وههنا ألمح البسمات الصغيرة ، الخبيثة ، تترى من زوايا الشفاه :

ــ الحقيقة : ليس من عنده الصبيان والشباب ، كالذى خلّف البنات !

وأجدنى مندفعاً إلى حسم الحوار بدعابة من عندى :

ـ أنا ، يا إخوان ، مِن نوع من الرجال لا ينجب سوى البنات (أو « أفلسف » الأمر على نحو آخر) إن إنجاب الرجل ذرية من البنات هو أصعب من إنجابه الذكور . . . لأنك ، فى إنجابك البنات ، تخرج ، أنت الرجل ، من صلبك ، ما ليس من جنسك !

ثم أراهم يقهقهون « للنكتة » . . . حتى ليستلقوا على أقفيتهم !!!

* * *

صحوت من أفكارى على جرس الباب يرنّ . إنها القابلة . هى ذى تحمل حقيبتها فى يدها . شابة فى نحو الثلاثين ، عزباء ، وديعة ومرحة ومتدينة :

غابت فى البيت :

ولم ألبث طويلا حتى لحقت بها ، أسألها :

ـ متى الولادة ، فيما تقدرين ، يا آنسة « نَهْلة » ؟

كان عقربا الساعة يشيران إلى العاشرة والنصف .

ـ بعد منتصف الليل ، إن أراد الله .

وبناتى الثلاث متحلقات حولها ، يوسعنها نظراً يرشح أملا ورجاء .

أعلنت إيمان الصغيرة فرحة ، وهى التى تتميز بعنادها :

ـ لسوف أسهر إلى ما بعد منتصف الليل !

وأيدتْها بسمة ، المعروفة بغرامها بالنوم :

ـ وسأسهر معك . لأكون فى استقبال أخى تمام لحظة ولادته !

وعدت إلى الحديقة ، أمشى الهوينا . وملت إلى حوض القرنفل

أقطف زهرة. كانت تغتسل بضوء القمر . أدنيتها من أنفى ، وعببتُ من أريجها ما ملأ صدرى . كم بذلت جهداً فى رعاية الحديقة وأزهارها وأشجارها ! وكم تعبتْ بنياتى فى سقاية أحواضها وغسل بلاطها !
بعد منتصف الليل ، سينضاف إلى أسرتى عضو جديد ، يأخذ دوره فى خدمة الحديقة : إن جاءت منتهى انضمت إلى أخواتها . . . فإن أقبل تمام عهدت إليه برعاية الشتول التى أغرسها ، فيتولى توثيقها بخيطان ، حماية لها من أن تستلقى فروعها على التراب ، فيأتى الماء والطين على أزهارها . قبل أيام وجدتنى أشكو لأم أمل ، وأنا أقيم الشتول على عيدان القصب : « لم يعد جسمى يطيق الانحناء ، يا أم البنات الحلوات ! » . . . أجابتنى وهى عاكفة على خياطة ثوب صغير لمولودنا المنتظر : « قريباً يأتيك ابنك ، فيأخذ عنك القيام بهذا العبء! » ، وأومض فى عينيها بريقٌ أفسح لخاطرى عالمًا من الأمل والتأمل !

تلقطت أذنى همساً يدور وراء الباب :

ــ نحن ثلاث بنات . . . يا ترى : هل نصبح ، الليلة ، أربعًا ؟ أم نظلُّ ثلاثًا ويكون تمام رابعنا ؟

كانت تلك إيمان الحريصة على السهر . وبسمة تحاورها فى ابتهال :

ــ يا ربى ، يا ربى ، يأتينا صبى نسميه تمام !

ناديتهما :

ــ إيمان ! بسمة !

ــ نعم ، يا بابا .

ــ ألن تتوجها إلى غرفتكما ، فترقدا ؟

ـ سنسهر . . . حتى نرى أختانا تمام !

أشفقت على الصغيرتين :

ـ بل يحسن أن تذهبا إلى النوم ، يا حبيبتيّ . فربما تأخرت الولادة حتى الفجر .

أعلنتا بلسان واحد :

ـ نسهر . . . حتى الفجر !!

* * *

تصاعدت أصوات الطلق . وتسرّبت إلىّ عبر نافذة الغرفة المطلة على الحديقة . حين أقبلت ابنتى الكبرى تدعونى إلى العشاء .

قلت لها :

ـ لا أحسُّ جوعًا يا أمل . اهتمى بأمك يا بنيتى .

إنها اليوم فى ربيعها السابع عشر . صبية واعية ، تنهض بالعناية بأمها ، فى هذه الليلة الحاسمة ! وتبسمت بمرارة ، وأنا أستحضر فى خاطرى صورتها يوم ولادة أختها إيمان ، وقد تسمرت فى باب الغرفة فى المستشفى ، ترفض أن تنظر إلى الوليد الجديدة ، وتدق ـ فى احتجاجها ـ الأرض بقدمها الصغيرة ، وهى تعلن من خلال نحيبها : « لا ، لن أدخل ! لم أعد أريد أخوات ! لِمَ لم تأت أمى لنا بأخ ؟! » ! . . . فهل تصنع الصغيرتان الليلة إذا فوجئتا بأخت رابعة ، صنيع أختهما بالأمس البعيد ؟!

وانبعثت من الغرفة صرخة أشدّ ! فقمت فى قلقى أجوس الحديقة ، وأنا عاقد ذراعى على صدرى .

مشيت خطوتين . ولكنى لم ألبث حتى نكصت ، وأطللت من وراء النافذة :

ـ هل من مساعدة أسديها يا بنتى يا أمل ؟

هرعت ابنتى ، متنشطة ، إلى النافذة تفتح مصراعها :

ـ شكراً يا أبى .

فسألت القابلة :

ـ أين وصلنا ، يا آنسة نهلة ؟

أجابتنى ، وهى مشمرة عن ساعديها :

ـ أقل من ساعة ، وينتهى كل شيء بالسلامة .

فأضفى ردها على قلبى راحة .

وأعليت من صوتى :

ـ كل ما أترجاه ، يا حبيبة ، أن تضعى حملك بالسلامة .

وعدت إلى تأملاتى فى ضوء القمر : ما ضر لو أن الله منحنا صبياً يكون أخاً لأمل وبسمة وإيمان ؟ إن حنينى ، يارب إلى الصبى ليملأ خافقى ، فى وقفتى هذه الواجفة على باب الغيب . بودى أن يكون لى أخيراً ابن . . طفل ينمو ويكبر وأصحبه فى زياراتى إلى الأصدقاء . فى نفسى أن أراه يدخل إلى ، فى زيارة أحدهم لبيتى ، مقدماً إليه وإلى فنجان القهوة . أشتاق أن أراه يسير برفقتى وأنا متوجه إلى السوق لأتبضع حاجاتنا المنزلية : يمسك معى « الشبكة » الطافحة بمحتوياتها فأوهمه بأنه « يعاوننى » فى حملها ، بينا هو يثقلها بما يزيد على وزن



ساعده الصغير البض ! لسوف أشترى له شبكة من نيلون صغيرة ، أضع له فيها برتقالة ويوسفيتين وثلاث جزرات ، فيمشى إلى جوارى مزهواً ، وقد ملكه إحساس بأنه يبذل جهداً فى معاونة أبيه . ولكنه ما يلبث حتى يعلن : « بابا ! تعبت! » . . . فأتوقف لأخفف عنه ما ناء به ساعده الصغير ! يا عينى عليك ، يا تمام ! لماذا تأخرت ، يا ولدى ، ياحبيبى ؟

انطلقت ، عبر النافذة ، صرخة بلغت مسمعى ، وأنا فى أقصى الحديقة . أيكون هو من يدق ، الآن ، أبواب دنيانا هذا الدق العنيف ! ؟

اقتربت ، مرهف السمع :

طلقة أخرى أشد وأمضى !

والقابلة ، فى انهماكها ، تنادى ، تتضرع :

— يا الله ! يا الله ! يا معين !

وانطفأت الطلقة دفعة واحدة . حبست أنفاسى : ولكن بكاء الطفل لم يعلُ ! صمتٌ مطبقٌ يمسك بخناقى !

كنا قد دأبنا ، من قبل ، على أن تكون الولادة فى المستشفى. ولكن أم البنات الخلوات أصرت ، هذه المرة ، على أن تستقبل وليدها الجديد فى البيت ، مثلما رغبتْ فى ألا يشاركها ، لحظتها الحرجة ، أىٌّ من القريبات أو الصويحبات . لقد حرصت على أن تغير المكان ، وتحتجب عن الوجوه التى ألفناها فى الولادات التى سبقت ... فلعل الحظّ يتغيّر ، لعله !

* * *

تلاحقت الطلقات ، واشتدّت عزماً .

والقابلة تهتف :

ـ هيّا اضغطى . . . اضغطى أكثر . . . يا الله ! يا الله !

وأنا وراء النافذة أمسك أنفاسى .

أى عذاب يجرى فى بيتى ! والقمر مال إلى المغيب ، والفجر يوشك أن يسفر .

طلقة جديدة أشد مضاء .

ـ يا الله ! يا معين ! . .

وتنطوى .

ولا بكاء !

وينفطر قلبى ، وأنا أتنصّت . ما هذا العذاب المقيم ! أفعم صدرى ، بغتة ، خوف ما ، خوف من مجهول ! أنا الذى كنت ، طوال الساعات التى مضت ، أحلم بالصبى يزرع القرنفل ، ويحمل الشبكة الصغيرة ، ويقدم القهوة إلى ضيوفى !! ماذا لو وقع ، الآن ، تحت سمعى وبصرى ، ما ليس فى الحسبان ؟! ركبنى غم مريع . هتفتُ بلهفاتى كلها : أريد الوضع أن يتم ! فى نفسى أن أسمع بكاءها : بكاء منتهى ، إيذاناً بالخلاص من هذا العذاب . ستنتظمين ، يا بنيّتى ، عقداً من شقيقات لك ثلاث أحبهنّ . لسوف تنالين من حبى قدْراً أعظم .

صوت القابلة يرتفع مجهداً :

ـ هذه آخر طلقة . اضغطى بكل قوتك . يا مهوّن ! يا معين !

مزّقت الصرخةُ سكون الليل ، حتى خلتها بلغت سمع القمر الذى غاب .

وساد صمت : ثوان خمس. . . عشر . . . دهرٌ طويل !

وانفجر بكاء الوليد. . . .

نأيت بنفسى عن النافذة . لم تعد بى طاقة على الوقوف . تهاويت على حافة البركة .

كان قد ارتفع فى تلك اللحظة ، اسم الله تردده المآذن القريبة .

ـ الله أكبر . الله أكبر .

أحسست بمآقى وقد أترعت دمعًا .

انهمرت دموعى ، سعيداً بالولادة أنْ تمت .

ـ حمداً لك ، يارب ، يا من يتردد اسمك فى هدأة الفجر .

خطوات عجلى تقترب .

خجلت من دموعى تشهدها ابنتى . ألْفتنى ، فى موضعى ، معتمداً وجهى بين راحتى . وقفتْ متهيبة لحظة . ربتت كتفى . همست :

ـ أمى ولدت ، يا أبى .

وانتظرت أن أسألها ، لهيفًا ، عما وضعت أمها . ولكنى لبثت صامتًا أكفكف خفيةً دمعاتى ببنانى .

انحنتْ تعانقنى . وبصوت راعش أعلنتْ ، وما كان فى وسعها أن تظلَّ معتصمة بالصمت :

ـ ولدت أمى أخانا تمام ، يا أبى !

وداريت ارتعاشاً فى صوتى :

ـ سيان ، يا ابنتى . . أن يكون الوليد ذكراً أم أنثى . . . المهم عندى سلامة أمك .

لثمتْ أمل خدّى ، فأحسست فى وجهها بللا .

* * *

وجدتنى ، مع غبشات الصبح الوليد ، رجلاً آخر : أبا لأربعة فيهم صبى ، أنا فى طريقى إلى « التعرف » إليه .

اطرحت ، بعيداً ، قلقى العظيم ، حزنى ، خوفى ، اغتمامى. . . ونهضت صوب النافذة .

ومن وراء زجاجها أبصرته ، موسداً فوق حشية ـ يا عينى عليه !ـ وقد لفّع بدثار .

هتفت بينى وبين نفسى : هو ذا تمام المجيد ، الذى انتظرته الأسرة ، طوال ثمانية عشر عاماً ! إنه يمتص سبابة يسراه ، ويدفع بقبضته اليمنى الصغيرة فى الهواء ما أحلاه : نهم ، وقوى مجالد !

والقابلة ، التى غابت عن ناظرى ، تتابع مهمتها .

تراجعت خطوتين .

قلبى يفيض حبوراً . لقد تفجر عندى فرح كان قبل مكتما ! أحس سعادتى الأسرية قد اكتملت من بعد نقصان طال أمده ! آه ، ما أسعدنا به ! ما أسعد الصغيرتين ! لقد أرهقهما السهر ، حتى لم تعودا تقويان على

مغالبة النعاس ، فنهدتا إلى النوم .

اقتربت من حوض القرنفل ، وجاوزته إلى حوض المنثور ، متابعًا سيرى إلى حيث شجرة الكبّاد . . . ولكن نفسى لم تطاوعنى على الابتعاد . أودأن أشهد وليدى الرائع عن كثب .

ارتددت إلى الغرفة .

نقرت الباب بأصبعى . فردت القابلة بصوت قوىّ واثق :

— تفضل !

رأيت الصبى محمولا على كفّيها فوق الطّسْت . وأمل تصبُّ عليه الماء الفاتر من إبريق . . وهو ممعن فى صمته ، يتقبل راضياً ما شاءت دنيانا أن تفرض عليه من طقوس أولية !

انحنيت على الوالدة المجهدة ، ألثم جبينها المتعرق :

— حمداً لله على سلامتك ، يا . . . « أم تمّام » !

رفعت إلىّ عينين مكدودتين . ولكن نشوة من الظفر والانتصار كانت تشرق فى وجهها . وأحسستنى ، الآن ، أكثر قربًا إليها من أية لحظة سبقت !

— تهيئى ، يا حبيبة ، لتضعى لتمام أختًا .

فأغضت ، من جُهْد ، طرفها .

واحتجت القابلة الشابة ، بصوت يفيض حيوية :

— إنها لم تنس آلام الولادة بعد !

وقد أخذت تلف جسد الوليد بمنشفة .

ـ الشكر لك على عنايتك ، يا آنسة نهلة . لطالما رددت « أم تمام » أن يديك لا تتلقيان غير الصبيان . الآن عرفت لم أصرّت على الولادة فى البيت على يديك !

أشرق صوتها ، وهى تمعن فى الجسد الوردىّ تنشيفاً :

ـ هذا من فضل ربى :

وددت أن أهيب بها ، وهى تفرك جسد الصغير : رويدك ، لا تقسى على الصبى !

ـ تهيئى ، إذن ، لكى تستقبلى فى مثل هذا اليوم من العام القادم وليدنا الآخر !

وأمل توسلت بصوت واجف :

ـ بابا ! أرجوك . يكفينا تمام العزيز .

فطنتُ :

ـ آن للصبيتين أن تنهضا .

أعلنت أمل ، وهى تدفع بالقميص إلى القابلة :

ـ إنهما تغطان فى النوم . من يقدر على إيقاظهما فى هذه الساعة ؟

ـ أهذا ظنك ؟ حسن .

وسعيت إليهما :

وعلى سرير إيمان انعطفت أهمس :

ـ إيمان ! اصحى ، يا بابا !

وهى غارقة فى أحلامها .

ـ أمك ولدت يا إيمان . ألا تستيقظين يا حبيبتى ؟

فتحت الحمامة الصغيرة عينيها . وفى صوت مثقل بالنعاس قالت :

ـ تمزح ! أنت تمزح ، يا بابا !

ـ لا مزاح فى هذا ، يا بنيّتى .

فهتفت بلهفة ، وقد فارقها نعاسها :

ـ وَلَدَتْ أمى ؟ ماذا ولدت ؟ !

ـ تمام ! جاءنا تمام ، أخيراً !

اندفعت الصغيرة ، التى أضناها انتظار أخيها ، تعانقنى . ثم قفزت ، مثل رشأ ، من سريرها وبينما هى تبحث بقدميها عن خفّها . . . رأيت ـ يا لعجبى ! ـ بسمة التوءم ، تدلى هى الأخرى ساقاً ، ثم ساقاً ، بحثاً عن . . . . .

هرعتا إلى حيث الوليد الذى اكتسى ، الآن ، نصفه الأعلى . قلت:

ـ هذا أخوكما تمام . عمره ، الآن . . . خمس وعشرون دقيقة ؛ تعرّفا إليه جيداً .

حوّمت الصغيرتان حوله تعاينان ، بنظراتهما اللهيفة ، موضعاً من جسمه لم يزل عارياً . وإذ أبصرتا ، تدافعتا نحو أمهما ، تعانقانها ، وتصرخان كمن مسّه جنون :

ـ تمام ! تمام ! جاءنا تمام !

شكرت بسمة ربّها :

ـ الحمد لله أننا لم نصبح أربعاً !

وإيمان وعدت :

ـ لسوف أخبر صديقاتى ، فى الصباح أن جاءنا أخ !

* * *

صباحاً ، وأنا فى طريقى إلى عملى ، أخذت أحلم بأن « تمام » قد شبّ عن الطوق . . . فهو يرافقنى إلى السوق ، ويطالبنى ، مرةً بعد مرة ، بأن أجعل فى شبكته مقادير أكبر من المشتريات !

وتصوّرته ، وهو يشدّ محفظته الجلدية الصغيرة ، العامرة بالكتب ، إلى ظهره ، ماضياً إلى مدرسته مع باكر الصباح !

وفى عين الخيال رأيته يعاوننى فى توثيق شتول القرنفل والمنثور . ويتسلق ، بحذر ذكى : شجرة الكباد ليقطف منها ثمرات تستصنع مربّى للأسرة .

وإنه ليساعد ، فى غمرة نشاطه ، أخواته الثلاث فى سقيا أحواض الحديقة ، وفى رش زرعها وأشجارها . . . ولكن شيطان العبث يغريه ، أحياناً ، فيسلط خرطوم الماء على أخواته ، وعلى المارة فى الشارع . . . فيبل ، ويؤذى ، ويبعث على الاحتجاج ! وأجدنى أنصحه فى المساء: « لا ، يا تمام ! هذا صنيع لا يليق بصبى مهذب مثلك » ! . فيغضى استحياء !

وأكدت عزمى : لن أعامله معاملة الابن الوحيد ، خشية أن يفسده الدلال . لسوف أحرص على أن أصحبه إلى السينما وإلى الملعب والمسبح : سأكون

له صديقاً ، كما كنت لأخواته . ولكن أى بون ! أربعون ، إنها أربعون من الأعوام ! لا بد من أن نسرع فى إنجاب أخ له ، صديق ، فى عامنا الآتى !

* * *

سألنى زملاء العمل عما إذا كانت شريكة العمر قد . . .

فأجبت أن نعم .

فبادروا يستفسرون فى فضول :

ــ حنطة ؟ أم شعير ؟

ــ جاء تمام !

بعضهم أعلن فى فرحة :

ــ ألم نقل لك : إن البطن التى تعطى بناتاً ، لا تبخل بالصبىّ !

* * *

هتفت ، فى الضحى إلى بيتى :

ــ كيف حالك ، يا « أم تمام » ؟

جاءنى منها صوت واهن :

ــ الحمد لله .

ــ وكيف حال تمام ؟

ــ إنه يبكى . . . ما يفتأ يبكى !

سألت فى قلق :

ــ ولِمَه ؟

ـ إنه جائع ، ولا يقنع بماء الزهر المحلّى .

ـ ولم لا ترضعينه ؟

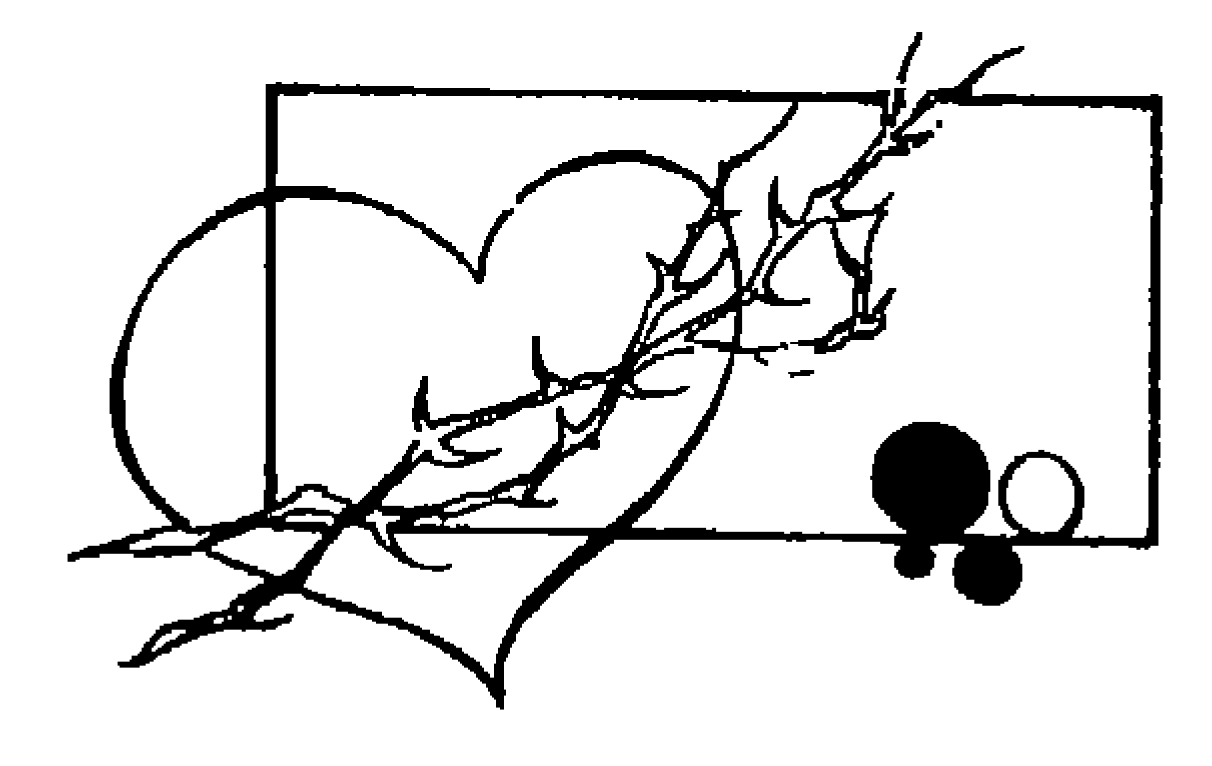
ـ لم يدرّ الحليب ، بعد .

وترامى إلى سمعى ، عبر خط الهاتف ، بكاؤه : كان بكاء صارخًا ، احتجاجًا قويًّا ، من إنسان يحس جوعًا ، ويطالب بحقه فى الغذاء ، وفى الحياة .

وحدّثت نفسى ، وأنا أعيد سماعة الهاتف إلى موضعها : هو ذا عضو فى أسرتنا جديد ، ينزل إلى معترك الحياة !

وقطع علىّ وحدتى أن أخذ الزملاء والأصدقاء يتوافدون إلىّ ، مهنئين ، مطالبين بالحلوى .

همومٌ كبيرة



لم يكد « خلدون » يضع المشط من يده ، حتى تلقّطت أذنه رنين جرس الباب ، فتساءل من هذا الذى يجىء فى ساعة القيلولة هذه ؟ وألقى نظرة على نفسه . قبل أن ينسحب من أمام المرآة : الشعر قد صفف بعناية ، ولكن الصدر عار إلا من قميص « الفانيلّة » . . . ومضى نحو الباب : لعله أجير الكوّاء جاء يطرق بابنا ، والأهل مازالوا نياماً .

صاح بصوت جهير لم يُعْنَ بتلطيفه :

ـ نعم ؟ (ويده على مقبض الباب) مين ؟! . .

فطالعه محيّا تلك الغادة اللطيفة ، الذى طالما ارتسم فى خاطره ، وإلى جوارها ظهرت أختها الحلوة الآسرة !

أحس أنه يذوب خجلا ، وهو فى « بنطال » المنامة وقميص الفانيلة الكاشف عن صدره والزندين ! أغضى لحظة ثم رفع رأسه مرحباً بصوت حرص أن يجعله رقيقاً هادئاً :

ـ أهلا وسهلا . تفضّلوا .

فاتحاً لهما مصراع الباب على آخره ، مرتدّاً ، وهو فى البهو أمامهما ، بخطوات مضطربة ، نحو الصالون ، ففتح لهما بابه ، وهو ما يزال مغضياً بناظريه . حتى إذا دخلتا ، استأذنهما بالصوت الرقيق ذاته :

ـ عفواً ، لحظة واحدة ، ريثما أدعو لكما « باسمة » !

ومضى نحو غرفة أخته ، محدثّاً نفسه بمرارة : يا لحظى النكد ! لو أنهما تأخرتا فى مجيئهما دقائق معدودات ، إذن لكنت فى أكمل هندام !

أو ليتنى نهضت من سريرى قبيل دقائق ! ولكن . . . ما بال أختى فى غرفتها لم تبرز إلى ضيفتيها ؟ واعتصر الغم قلبه : أختى باسمة ، إنها علىّ ، وأصل متاعبى ! . . .

نقر باب غرفتها ، منادياً برفق :

ـ باسمة !

لم يتلق جواباً . فكر فى غضب كظيم : أنا لست مكلفاً بفتح الباب لصديقاتها ، واستقبالهن ، ثم أترفق فى إيقاظها ! لتقم هى ، حضرتها ، تفتح وتستقبل ! ولكن سرعان ما أخذ يفكر بحنان : لو أنها تظل ، الآن ، غارقة فى نومها ! لو أنى فى بدلتى ! وأطلق آهة حرى : كنت أمضيت معهما لحظات طيبات ، آه ، وملأت صدر أختى غيظا وقهراً !

عاد ينقر الباب بأصبعه ، مترفقا :

ـ باسمة ! باسمة ! . . .

فترامى إلى سمعه صوتٌ خمول :

ـ نعم . . . !! (ثم فى ضيق) ماذا تريد ؟!

فأطل عليها :

ـ ماذا أريد ؟ أليس بينك وبين بعضهن موعد ، يا فهيمة ؟!

فتفكرت أخته لحظة ، رفست بعدها الغطاء جانباً :

ـ يا لى من غبية ! إنهما « كوثر » و « غالية » . يا لله ! أخذنى النوم .

فتهكم بها :

ـ معلوم ! الصديقات لك ، وأقوم أنا بواجب استقبالهنّ ! « تشريفاتى »

عند حضرتك ، يا خانم !

رقّ صوتها ، وقد غدت فى وسط الغرفة :

ـــ وأين هما ، يا خلدون ؟

ـــ وأين تكونان ؟ قد أدخلتهما الصالون ، فهما تنتظران مقدمك الكريم !

فسألته ، وهى فى الباب :

ـــ وهل استقبلتهما ، وأنت فى هذا الـ . . . منظر » ؟

ـــ نعم ستى ، متُّ خجلاً ! انبسطى !

قالت تعتذر ، وهى فى البهو :

ـــ آسفة ، يا خلدون . أشكرك على عنايتك باستقبال صديقتىّ !

واتجهت إلى حيث المغسلة . . .

* * *

وقف خلدون أمام المرآة فى غرفته : الماكرة ، تبدى لى أسفها ، وتشكرنى ! هى سعيدة ، لا شك ، لأنى بدوت لعينيها وأنا فى بنطال المنامة والفانيلة ! ذلك ما يؤكد لها أنى لم أجالس صديقتيها لحظة واحدة ! باسمة علىّ ! إنها تجلب لى المتاعب ، تكيد لى ، تنتصر على أبداً ! . . . وما كان هذا ليتحقق لها ، لولا أن أمى تشد من أزرها على الدوام :

ـــ خلدون ! تعال إلىّ ، يا خلدون ! . .

كم من محاولة رغب فيها أن يجالس الزائرات من أترابها ، ساعة ، دقائق لحظات وجيزات ! يحس فى نفسه ميلا إليهن ، ميلاً جارفاً . . . يتوق إلى أن يتطلع إليهن : أن يصغى ، يبادلهن الحديث . . . ولكن أخته

تأبى عليه ذلك ، تسلبه كل فرصة تجود بها الظروف . تبدأ أولاً ، إذا ماواتته السانحة ، بأن ترمقه بنظرة من جانب عينيها ، معناها : «دعني ، يا خلدون ، أنا وصديقتي . . . أنا وصديقاتي . . أنت أمسيت رجلا ، ونحن بنات!» . نظرة بات يفهم جيداً ما تحمل في طياتها . مضى يستجيب لها . بادئ الأمر ، فيغادر الغرفة مرغماً ! ولكنها أمعنت ، فلم يعد يستجيب ، ذلك يضيع عليه الفرص الذهبية . فأمست تصارحه :

— خلدون ! دعنا ، يا خلدون . بيننا حديث بنات ، لا يحسن أن تستمع إليه !

وأحياناً تغلو في مصارحته : على مسمع من صديقاتها :

— لا تتطفل علينا . يا خلدون ! نحن بنات ، وأنت صبيّ !

فيضطر ، مع هذا الإحراج العلني . إلى أن ينسحب من بينهن ، خجلان خزيان . ولكنه — كذلك — أخذ يتمرد عليها ، متهكماً بها :

— وأية أسرار سخيفة تلك التي تريدين أن تفرغيها في الآذان ؟ !

فإذا هي تستعين بأمها . شدّ ما يغيظني من أختي أن تستعين عليّ بأمي . إنها بذلك تبرهن على أنها من جنس ضعيف . بنات جنسها حلوات ، ظريفات ، عذبات . ولكنهن سرعان ما يظهرن ضعفاً ، لا يثبتن أمام قوة ، لا يبدين مقاومة ، ما يحنقني أن أختي لا تتصرف بمنطق وإلا ما معنى أن تصر ، في تلك اللحظات ، على أن تصارح صويحباتها بحديث مما لا يحسن أن يستمع أخ إليه ! ؟ لم لا تفضي إليهن بأسرارها حين لا أكون بينهن ، فتدعني بصحبتهن دقائق ،

لحظات ؟! كم هى قاسية ! أنانية ! غيور ! سخيفة ! : : :

وأمى — لله درّها ! — ما تفتأ تشد من أزرها :

— خلدون ! عندما تكون صديقات أختك فى زيارتها ، فليس لك أن تفرض نفسك علّيهن !

ولكن من زعم أنى أفرض نفسى ؟ إنهن يرحّبن بوجودى . أنا لا أسبب لهن إزعاجًا . أنا أسليهن بطريف نوادرى ، أمتعهن . يرتحن لى ، تشع البسمات فى الثغور ، فى الأحداق . لكن باسمة . . . تغار ، تغار ، تغار !

تلقطت أذناه وقع خطواتها فى البهو . قد أتمت لبسها : فهى ، الآن ، تتوجّه إلى صديقتيها اللطيفتين

أصاخ السمع ، تنقر على الباب .

صياحهن ، الثلاث ، يتعالى :

— أهلين وسهلين . . . كوثر ، غالية . . . باسمة !

ما أعذب صياحهن ، وما يثرن من ضجيج ! ما أحبهن إلى القلوب ! لم تقسو أختى علىّ ، فتحرمنى من مجالستهن ومؤانستهن ؟! أهى تعاملنى بالمثل ؟ أنا ، حقًّا ، أحس غيرة عليها من أصدقائى . ولكننى — أنا — رجل ، والأمر مختلف ! نعم ، أنا لا أسمح لها بأن تجالسهم . أذكر يوم قامت تفتح الباب لصديق من أصدقائى ، وأدخلته الصالون ريثما تدعونى : بدا أن صديقى . . . قد استلطفها : ذلك أنها إذ أقبلت بصينية القهوة تقرع الباب ، هفا — اللعين — بناظريه نحو الباب ،

فأحسستُ النار تشتعل فى إهابى ! . . . نعم ، إنى رجل ، فالأمر يختلف ! ولكن أى ضير فى أن أجلس ، أنا ، إلى صويحباتها ؟ أنا أعرف نفسى طيباً ، مهذباً ، رقيقاً . لو أنى كنت ، الساعة ، فى بدلتى . إنى أهفو إلى هاتين الغادتين اللطيفتين . هل تعرف أختى مشاعرى نحوهما ؟ أنا لم أفصح لأحد عما أكنه لهما من أحاسيس وعواطف مكبوتة . هل قرأت فى عينىّ ، فى قلبى ، ما أجتهد فى خبسه وراء الضلوع ؟ أنا أستلطف الأختين ، نعم ، وما فى ذلك ؟

وعاد بذاكرته إلى زمن مضى إلى ما قبل عامين كان إذ ذاك فى الرابعة عشرة ، فى مثل عمر أخته الآن . وليس للأيام أن تمحو من ذاكرته صورة الأختين ، وهما تدلفان إلى فناء المبنى .

كان فى ساعة عصر . وكانت الدنيا فى مطالع الصيف ، كما هى الآن تماماً . كان يلعب الكرة فى الفناء وحيداً ، يقذفها بقدمه إلى الجدار ، فترتد إليه ، فيقذفها من جديد . وإذ أخطأ التصويب مرة ، فانحرفت الكرة يميناً باتجاه المدخل ، برزت لعينيه من هناك صبية حلوة ، أنيقة، تلبس الأبيض الناصع . . . بدت له ملكاً تنزّل من السماء . فما كان منها ، والكرة تتدحرج صوبها ، إلا أن اندفعت تردها إليه بضربة من قدمها الصغيرة ، بحيوية طافحة ومرح استرعيا انتباهه . فاستقبل الكرة ، وردها إليها . . . فإذا أختها ، التى ترتدى الأبيض أيضاً ، تتصدى للكرة . . . تبادل وإياهما اللعب لحظات من أمتع لحظات لعبه بالكرة ، بل من أسعد أيام عمره ، قبل أن يعرف أنهما تقصدان أخته !

سألته الكبرى سؤال العارف :

ــ أنت أخو باسمة .

أجاب :

ــ نعم .

ــ هى هنا ، طبعاً .

ــ أجل .

أضافت الصغرى ، وهى تحد النظر إليه :

ــ لله كم يشبهها ، يا كوثر !

فتاقت نفسه ، وهو يراهما تدخلان البيت : لو يتاح لى أن أعرفهما معرفة أوثق . رشيقتان ، لطيفتان ، مرحتان !

ولكن أختى ، آه ، إن أختى ، علتى ، لا تريد لى الخير . عندما أخذت الأختان فى التردد علينا ، فالتقيت بهما لماماً ، وجاذبتهما شيئاً من الحديث ، ذلك لم يزدنى إلا ارتياحاً لهما ، وإعجاباً بهما ، وافتتاناً برقتهما . آثرت الكبرى لأنها أوعى (تصغرنى بسنة واحدة) ! ولكنى فتنت بالصغرى (تصغرها بسنتين) لأنها أشد عذوبة ! هل نمّت عيناى عما فى صدرى ؟ إنى كلما التقيت بهما عرضاً ، أحسست أنهما تمنحانى راحة ، مرحاً ، انطلاقاً ، شعوراً مستعذباً ، بالاختصار : أجدنى ، أمامهما ، وقد أمسيت إنساناً آخر ! هل كشفتنى أختى ، لابد أن : فرحى ، اضطرابى ، احمرار وجهى ، ساعة تكونان فى زيارتنا ، ذلك كله يشى بى ويفضحنى . وأختى تغار ! إنها تنتقم منى ، تعاملنى

بالمثل ! ولكنها تخطئ إذ تعاملنى بالمثل . الأمر يختلف . أنا أمنعها ، نعم ، من استقبال أصدقائى . ولماذا تستقبلهن ؟ أنا . . . لا أقول ذلك بدافع الغيرة ! لا أدرى كيف أفسر الأمر ! ربما كانت . . هى الغيرة !! ولكنى إلى ذلك ، لا أذكر أنى لمحت ، فى زياراتى لأصدقائى ، أختاً من أخواتهن ! فلماذا تستقبلهم أختى ؟!

ـ تفتحين لهم الباب ، لا مانع . وأما أن تجلسى وإياى ، فى زيارة أحدهم لى ، فلا . إن فعلت ذلك دققت عنقك !

أعترف بأنى شديد صارم . لأنى أعرف من سرائر أصحابى ما تجهله أختى . ولكن ماذا عن سرائرهن ، أولئك اللطيفات الأنيسات ؟ ماذا يمكن أن يصيبنى منهن من الأذى ؟ أنا لا أضمر لهن إلا الإعجاب . إنى أستلطفهن وحسب . وأختى تضن علىّ ، تصرفنى من حضرتهن ، بالحسنى أو بالقول الصريح الذى يحزّ فى النفس ! فإذا أخفقت ، بعد ذلك كله ، فى صرفى ، التجأت إلى أمها :

ـ مامْ ! قولى لخلدون يتركنا !

فترفع أمى من صوتها :

ـ خلدون ! تعال إلىّ (ثم تاوى على مقرّعة) مائة مرة قلت لك : عندما تكون لدى أختك صديقاتها ، لا تحشر نفسك بينهنّ !

ـ ولكن . . . ليس بينهن أسرار ، يا أمى .

فتصرخ بى :

ـ دع أختك وصديقاتها ، أقول لك ! (وتلوح بيدها فوق رأسى

مهددة) أتفهمنى ، يا ولد ؟!

أنا فى نظر أمى ، مجرد ولد وأمى سريعة الاستثارة ، غضوب . وباسمة قادرة على الاستفادة من هذه التناقضات ! أمى تضربنى أحيانًا ، وهى غالبًا ما تضربنى بسببها . وهل أنسى يوم ثارت ، يوم جن جنونها ، فانهالت علىّ ضربًا بالـ . . .

* * *

أرهف خلدون سمعه : وقع خطوات باسمة فى البهو .

تدخل ، الآن ، المطبخ . أجل ، لتعد للأختين كأسين من الشراب البارد . لو أن الفهيمة ذاتُ ذوق وكياسة ، لما تركتهما ، هاتين الضيفتين اللطيفتين ، فى الصالون وحيدتين ، لا تفعلان شيئًا سوى التطلع إلى أ بعة جدران وسقف ! . . . لو أن العلاقة بينى وبينها حميمة على نحو ما ينبغى أن تكون العلاقة بين الأشقاء الطيبين ، إذن لعمدت أنا نفسى ، ودون تكليف من أحد ، إلى أن أعد كؤوساً ثلاثًا ، أصفها فى صينية ، وأتوجه بها إلى باب الصالون ، لأقول همساً :

ــ دونك الضيافة ، ياباسمة !

فتهتف ، وقد أشرق محياها :

ــ الشرابَ ؟! الله !!شكراً ، شكراً . لتسلم يداك ، يا أخى .

فأجيب من وراء الباب :

ــ هل من خدمة أخرى أؤديها ، يا أختاه ؟

فتدعونى ، بصوت أجده لا أعذب ولا أرقّ :

ـ خلدون ، أخي الحبيب ! لم لا تمنحني لحظات من وقتك، فترتدي بدلتك في الحال ، وتأتيني لأعرفك إلى صديقاتي الظريفات ؟ هيا أسرع ، قبل أن آذن لهن بالانصراف ، يا عزيزي !!

ضحك خلدون بينه وبين نفسه ، وهو يذرع الغرفة : إنه حلم ، أين منه الواقع الذي يعاني ؟ وفطن إلى أنه كان في سبيله إلى أن يرتدي بدلته، فإذا الأحلام تراوده ، والأوهام ، والذكريات . . .

إنه لحلم يقظة ، ليس إلا ، أن يسمع أخته تدعوه ،من فمها هي، لتقدّمه إلى بعض لداتها ! ولكنها دعته مرة ! نعم ، دعته، ولكنه اعتذر! وكان جديراً به أن يعتذر. . .

كان ذلك من نحو عام . ألحّت في دعوته للدخول ، فرفض ! فرجته متوسّلة ، فأبى واستكبر ! فذهبت إلى أمها تشكوه . . .

وأعلن أمام أمه ، بملء جرأته :

ـ ماما ! أرجوك ، لا تحاولي أن ترغميني على أن أفعل أمام الناس ما يحطّ من قدري ! غدوت شابّاً كبيراً أطول منك، ولي كرامتي : لا أريد أن أقوم أمامهن بما يفعله « مصلح كهربا » !

دارت أمه بسمة كادت تطفر إلى شفتيها (لقد لمحها !) ، وخرجت . وانسلّت وراءها باسمة ، والدمعة في مقلتيها . لتبك، لتنشق من الغيظ . كم مرة أبكته !

ومضت إلى أبيها سمعها تبكي ، وتقول :

ـ بابا ! جهاز الموسيقى في الصالون معطّل، فيه ذلك الخلل الخفيّ الذي

لا يعرف أحد فى البيت أن يصلحه غير أخى ! تصليحه لا يحتمل سوى دقيقة . وخلدون يرفض . لعله هو الذى أحدث الخلل ، يا بابا ، ليحرجنى أمام صديقاتى . نريد أن نسمع الموسيقى ونرقص ، ولكن الجهاز معطل . توسلت إليه ، فرفض بعناد . حدثته أمى ، فاحتج بأنه شاب له كرامته . ما دخل الكرامة بتصليح الجهاز ، بتصليح خلل فيه هو صاحبه ! بابا ، أرجوك ، قل لخلدون أن يصلحه !

وكان لابد لأبيه من أن يتعاطف معها ، ما دامت شكت وتباكت: جنس ضعيف !

— لم لا تصلح جهاز الموسيقى لأختك ، يا خلدون ؟

— لأنى لا أعرف تصليح . . .

— ومن ذا الذى يعرف فى البيت إذن ؟ من الذى خربه سواك ، أنت الذى نراك تعبث به على الدوام ؟!

كلامها مسموع ! اتهاماتها مصدقة دائماً !

— ولكن ، يا بابا . . .

— لا أريد أن أسمع كلمة أخرى . خلل أنت صاحبه . أصلحه فى الحال .

— سأحاول . ولكنى إذا لم أستطع . . .

— طيب ، طيب ! حاول ، وتعال فأخبرنى .

ودخل إلى حيث الصويحبات ، مطرقاً ، خجلان ، ممتعضاً ، وما ألقى عليهن سلاماً . قلن ، لابد ، فى أنفسهن : عديم ذوق ! ليحسبن ذلك وما هو أسوأ . فإنما أرغم على أن يدخل عليهن دخلة أجير كهربائى !

انحنى على الجهاز ، والعرق يرشح من جبهته . عالج أشرطته الخلفية (يعرف جيداً موطن الخلل!) . وسرعان ما أخذ الجهاز يعمل . يصدح بالموسيقى ، وإذا البنيات يتقافزن من فرح ، مصفقات ، مهللات ، راقصات . . . ما أحلى ضجيجهن ! ولكنهن ، مع الصخب الذى أثرنه ، ما فاتهن أن يشكرنه على صنيعه :

— شكراً ، خلدون . . . شكراً لك . . . شكراً . . .

أجاب منشرح القلب :

— عفواً . لا شكر على واجب .

هل أعلمتهن أخته بامتناعه ، بادئاً ، عن إسعافهن بالإصلاح ؟ وهو يُنقّل نظراته بينهن مخلوب اللبّ ، مشوقاً إلى أن يصخب معهن ! وأمه ، بعدئذ ، حاسنته القول :

— خلدون ، ابنى ! أما كان خيراً لك أن تنهض إلى إصلاحه ، من البداية ، ياولدى ؟ لم لا تسمع الكلمة ، يا عينى ؟ لم العناد ، يا حبيبى ؟ فتجارأ يقول معاتباً :

— إن ما يهمكُّ ، يا أمى ، أن تُقْضَى مطالبُ ابنتك ، مطالبها وحدها . وأما كرامة ابنك ، فشىء لا يهمك كثيراً . لقد دخلتُ عليهنّ خزيان ، وخرجت ندىَّ الجبين ! أيرضيك ذلك ، يا أمى ؟

* * *

أخذ خلدون يتأمل نفسه أمام المرآة : أيهما أليق بالبدلة : ربطة العنق هذه أو تلك ؟ كان قد لبس بنطاله الصيفى ، ثم لم يلبث أن

نضاه . شاقه أن يرتدى بدلة ، بدلته هذه الجديدة :

خلع ربطة العنق : تلك أليق :

أخته تدخل، الآن ، إلى الضيفتين ،بصينية الشراب . لقد تركتْهما، قليلة الكياسة ، عشر دقائق تَعُدّان بلاطَ الغرفة من سأم ! ليتنى كنت وإياهما ، خلال هذه الدقائق العشر ! يسعدنى أن أدخل عليهما مضيفاً مرحباً ، لا أجير كهربائى ! أمى قدرت فى ذلك اليوم مشاعرى،فلم تُقْسِرنى على إصلاح الخلل. ولكن أبى هو الذى لم يقدر . تبنى كل اتهام ادّعته أختى ، فكان أن نالنى من أبى ذلك القسر الشديد . ولكنها — باسمة الطيبة ! — كانت السبب فيما نالنى من أمى من أذى كبير ،فى ذلك اليوم الذى ثارت فيه ثائرتها وجن جنونها ، فانهالت على ضرباً بالخرطوم ، ضرباً مبرحاً لا أنساه ما حييت !

كنت فى العاشرة من عمرى . وكنا ، يومها ، فى بيت جدتى . ذهبت أمى وخالتاى وجدتى جميعاً فى جولة ، وتركتنا فى البيت ، نحن عشرة من الأحفاد أو يزيد . ذلك يوم لن تمحوه الأيام من ذاكرتى . انصرف الصغار إلى اللعب فى البهو . وجلسنا ، نحن الأكبر سناً، فى الغرفة نتجاذب أطراف الحديث .

كنت ، آنذاك ، أحمل فى رأسى أفكاراً ما ، عجيبة ، عن المرأة والسُّفور والزينة والتبرج ، قد جرعنا إياها أحد أساتذة المدرسة ، حين غرس فى نفوسنا حذراً من الجنس الآخر، أو لأقل: حذراً مشوباً بالازدراء فالمرأة بالاختصار : جنس مثير للفتن !

أعترف بأنى كنت غراً حين أقبلت ، دون تمحيص ، على تناول هذه الجرعات الكبيرة كلها من الأفكار البالية! ولكن هل كان يسع ولداً ، فى سنى آنذاك ، أن يفطن إلى ما فى أقوال أستاذه المحبوب من مغالاة أو تجن ؟ كان من نتائج تأثرى به أن أخذت أزرى بشأن أختى الطفلة — وكان عمرها ثمانى سنوات — كلما تناقشت وإياها : « وهل تفهمين ؟ ما أنت إلا أنثى ، بنصف عقل ! » . وهى ما كانت لتستوعب أبعاد هذه الكلمات القليلة ، ولكنها شكتنى يوماً إلى أمى ، فساءلتنى أمى من أين جئت بهذه الأفكار العالية ؟! أجبتها ببلاهة : « من أستاذى ! » فقالت : « أستاذك مجنون ! » حاسمة الأمر بالحكم على أستاذى بالجنون !

ولكنى فى ذلك المساء ، وأبى والكبار غائبون ، رحت أعيب — منساقاً مع منطق أستاذى — على المرأة أموراً وأموراً. كان قد أترعنى بآرائه ومشاعره وكلماته . والأولاد ، وفيهم باسمة ، يستمعون إلىّ :

— المرأة شر . هى لا تتزين إلا لتخلب الرجال وتفتنهم ! . .

كفّ الصغار عن اللهو ، وتجمعوا فى الغرفة يصغون، وأنا أتحدث كخطيب . فقد كان أستاذى حاذقاً فى تلقينى .كان قد شبّه لنا المرأة ، وكذلك فعلت أنا تلك الساعة :

— . . . والمرأة أشبه بالخرزة الرخيصة البراقة : المرأة تلمع تحت المساحيق ، كما تلمع الخرزة بالألوان الكاذبة تحت ضوء الشمس !

كانت تلك « عموميات » قدمتها ، انتهيت منها إلى أن أعلن ، بمنتهى الصراحة — وهنا موطن الخطورة — « توصياتى » :

— إن على أمى وخالتى أن يقلعن عن التزين والتبرج ، ويعدن إلى عهد الحجاب ، حتى لا يجعلن من أنفسهن فتنة فى الشوارع تخلب الأبصار !

فرغت من خُطبتى ، وانفضّ الاجتماع ، وقام كل سامر إلى لهوه . ولكن بدا أن أختى اللعينة قد حفظت — وما أقوى ذاكرتها فى فعل الأذى ! — كل كلمة نطق بها لسانى ، وبخاصة هذه الكلمات التى سلّتها من أقوالى سلا : «المرأة شر ! أمى فتنة فى الشوارع ! أمى فتنة تخلب الأبصار !» حتى إذا عادت أمى وجدتى والخالتان من جولتهن ، سكبت أختى ، فى أذن أمها ، على انفراد ، ما سمعت منى وما لم تسمع فما وعينا ، نحن من فى البيت ، إلا وصرخة تنبعث من إحدى الغرف :

— فتنة !! أنا فتنة فى الشوارع ؟ !

طرقت الصرخة مسمعى : إنها كلماتى ! وإنه لصوت أمى العاصف

— وأين هو ؟

أوجست خيفة ، وقد تبينت أن أذى ما يوشك أن ينزل بساحتى . وسرعان ما غدوت ، بقفزتين ، فى البهو ، ومنه تسربت — على مرأى من الأولاد — إلى أول غرفة استقبلنى بابها المفتوح ، متوارياً فيها مابين سريرين . كنت أعرف جيداً أمى إذا ثارت ثائرتها ، وإنما صرختها المعلنة نذير غضب عظيم !

وأولاد الخالتين يتبرّعون بدلالتها :

— هنا ، هنا ، دخل خلدون إلى هنا !

وأمى توالى صرخاتها :

ـ أنا فتنة تخلب الأبصار !

انبطحت على بطنى ، زاحفاً إلى ما تحت أحد السريرين .

ـ أين هو ، المغضوب ؟

والصغار ، الذين لا يؤتمنون ، يشيرون إلى مكمنى :

ـ هنا ، إنه هنا ...

جذبتنى أمى من قدمى ، فانجذبت ، وانقلبت بين يديها ... فإذا أنا وإياها وجهاً لوجه ، وفى يدها قطعة من خرطوم لا أدرى أى حظ نكد وضعها فى متناول يدها !

ـ ماذا كنت تقول ، فى غيبتنا ، يافيلسوف ؟ !

ـ وماذا قلت ؟

ـ أمك تتبرج ! فتنة للأبصار ! خرزة رخيصة براقة !!

وكان لابد من أن أنكر :

ـ أنا لم أقل شيئاً !

ـ أتريد أن تعيدنا إلى «عصر الحريم» ؟ !

ـ أنا لم أقل هذا !

ـ بل قلت ماهو أسوأ .

وأهوت على بالخرطوم المطاطى .

ـ اعترف . قل الحقيقة ، أيها الشقى ! هل قلت كل هذا ؟

ـ لم أقله .

ـ لم تقله ، ها ؟ !

وأخذ الخرطوم يخفق فى يدها ، فيغمرنى بضربات مبرِّحة ، على كتفى ، وصدرى ، وجنبىّ ... تنهال به على كيفما اتفق ، وكأنما مسها صاعق من جنون :

ــ المرأة شر ؟! تقول عن أمك : فتنة ؟! أنا وأختاى نتزين للرجال ولمن تريدنا أن نتزين ؟ للنساء ؟! أيطمع أستاذك المجنون أن ينتشر الشذوذ بين البشر ؟! ... بالأمس تقول لأختك : «أنت أنثى ، بنصف عقل ، لا تفهمين ! » والآن تعيب على أمك أنها تلبس وتتزين ! أتريدنى أن أزهد ، وأنا فى عز شبابى ؟! لم يعد ينقصنى إلا أن تحرض أباك على !! ابنى الصغير ، يتحكم بى ، وهو بعد بطول ساق !!

وأنا أستجير . والأولاد ، صبياناً وبنات يتفرجون ، ولا من مجير ولما تراءى لحدقى أن تتدخل ، كانت أمى قد استنفدت بالضرب عزمها كله ، فانهارت على السرير تنتحب بعصبية ! وأما أنا ، وقد حملت من الغرفة حملا ، فلم يبق فى جسمى موضع إلا وفيه ضربة من ذلك الخرطوم اللعين !

ظللت ، طول الليل ، أئن من فرط الألم ، وأنا ألعن باسمة التى فتنت وأستاذى المجنون المأفون ! وأمى ما تفتأ تطل على ، فى غرفتى ، بين الساعة والأخرى متعللة بالبحث عن شىء ، وماهى بحاجة إلى شىء ، ولكنها تسعى إلى أن تسكن قلقها على ولدها الموجوع ، بتفقدها إياى وأنا فى سريرى ، وتعرفها على أية حال أمسيت !

وقد سولت لى نفسى ، فى اليوم التالى ، أن أشكوها إلى أبى متوسلا

إلى بسط شكواى برسالة سطرتها إليه – أنا ابن العاشرة – رحت أقص عليه فيها أى اضطهاد نالنى – بسبب باسمة – من أمى ، وأى ضرب مبرح وأذى ، أمام الكبار والصغار فى بيت جدتى ... وختمتها بأن بللتها بدمعات امتزجت بحبر أسطرها ، ثم مهرتها بهذا التوقيع : «ابنك المعذب من أمه» ! ودسستها فى أحد جيوبه ، فى غفلة من العيون ... ولست أدرى ما إذا كان كاشف أمى بالأمر ، أو أن يداً امتدت إلى الرسالة – وهى فى جيبه – فمزقتها ، هى يد أمى ، أو لعلها يد أختى الشقية الفتانة : باسمة !

* * *

صحا خلدون من خواطره ، فأدرك أن عواطفه قد استثيرت على نحو جلى ، حتى لقد اغرورقت عيناه . فحادثة ذلك اليوم خلفت فى نفسه ندباً ما ينمحى ... ولكنه تبين ، أيضاً أنه قد استبدل بربطة العنق ثالثة ، وهو لا يدرى !

ساءل نفسه : إلى أين أنت ذاهب ، الآن ؟ فقد أنساه استطراده أنه كان قد نهض من قيلولته ليذهب إلى صديق. وأحس مرارة : إن «يوم الخرطوم» ينسينى ولا أنساه !

ترامت إلى سمعه جلبة ، فى البهو ، صغيرة : الضيفتان الحلوتان تنصرفان .

أصاخ السمع : ضحكات عذبة صافية تصل .

– سنراك قريباً ، يا باسمة ... ها ؟

إنه صوت الكبرى : كوثر !

وأخته ترّد :

ــ أكون عندكما فى الموعد تماماً .

ــ لا تنسى أن تحضرى معك ... الأسطوانات !

إنها الصغرى : غالية !

ــ وكيف أنسى ، يا عزيزتى !

الأصوات تبتعد ، تغيب ...

هُرِع إلى النافذة، وهفا بناظريه إلى الفناء : تلك هى كوثر تلبس الوردى هذه المرة ، لله ما أروعها ! وغالية تلبس اللون ذاته كأنهما توأمان . ما أرقّ ذوقيهما ! ما أرقّهما ! ترى، هل لهما أخ فى مثل سنى تجِدّان فى تعذيبه ، وأم قاسية ، وأب لا يسأل ؟ ...

غادرتا الفناء إلى الطريق .

تضمخ بالعطر ، ملقياً نظرة أخيرة إلى المرآة: كمالٌ فى الهندام ! وانطلق من الغرفة متنشّطا .

تقابل وأخته ، فى البهو . هتفت مأخوذة :

ــ يا للرائحة ! (وأمعنت النظر إليه) ما هذه الأناقة كلها ! إلى أين ، وأنت فى أحلى بدلاتك ، يا خلدون ؟ !

شمخ بأنفه :

ــ إلى ... موعد !

فاتسعت منها العينان :

ـ موعد ؟ !!

لم ينبس :

أولاها ظهره ، وهو يجتاز البهو : قد أثرْتُ فى صدرها شكوكا ! تصنع الجد ، وقد غدا فى الباب ، فلم يلتفت إليها ، وتخيَّلها – فى صمتها وسكونها – تلاحقه بنظرات مرتابة !

وفى الفناء أحس راحة عظمى تتنزل على قلبه : يبدو أنى أفلحت فى أن أثير عندها ظنوناً ووساوس ! وحدث نفسه : ههنا تلقّت كوثر الكرة قبل سنتين ، فردّتها إلىّ بضربة من قدمها الصغيرة الأنيقة !

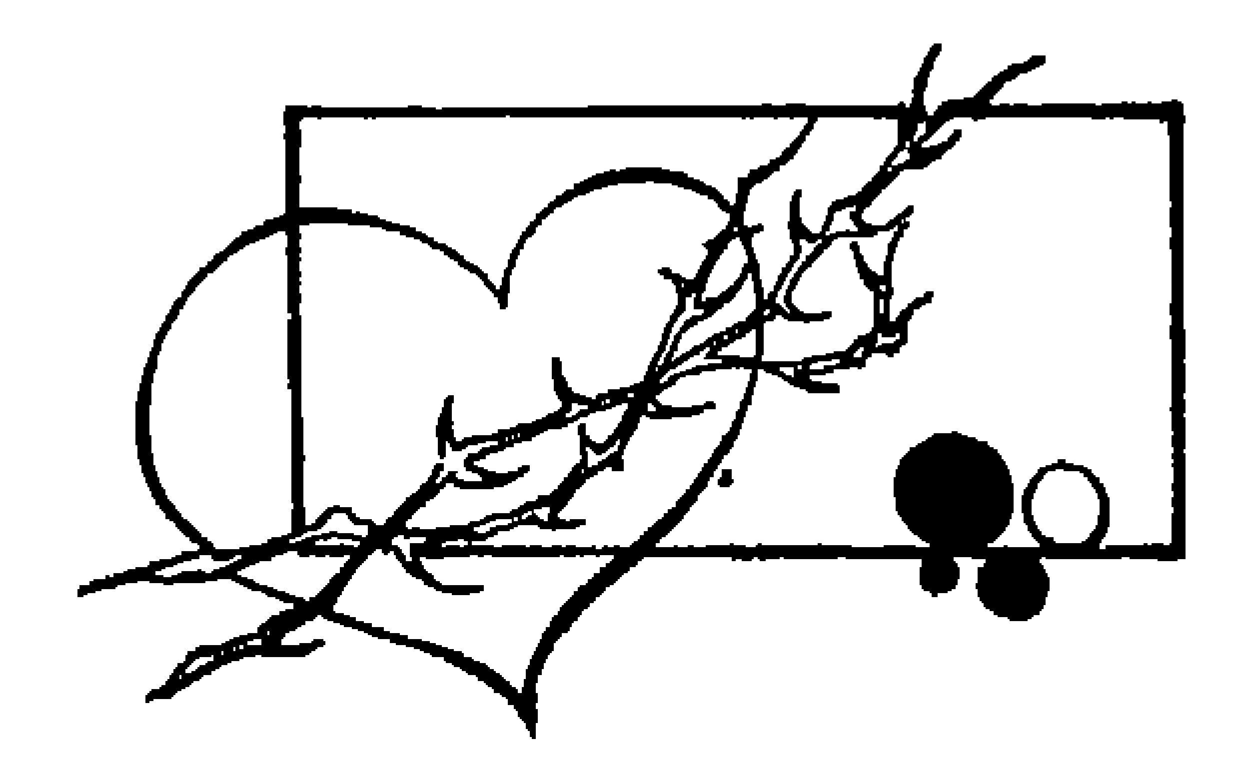
وفى الطريق فكر بسعادة : إن كنتُ قد ِرت أن أوهم باسمة بأنى ماض الآن ، إلى الأختين ، فى موعد اختلسته لحظة فتحت لهما الباب ، أكون بذلك قد سجلت انتصاراً عليها ، يعدل انتصارها هى على فى ... يوم الخرطوم !

لمحهما فى المنعطف : غزالتان شاردتان ، عصفورتان !

زفر بمرارة : آه ، ماضرَّ لو كان بينى وبينهما موعد الآن ، فألتقى بهما ، وأتحدث إليهما حديثاً ممتعاً ، يتناول العام الدراسى الذى انقضى والكتب التى أستعد لمطالعتها ، وأحب الأغنيات إلى نفسى ! وَنَدعُ ما سوى ذلك إلى ... لقاء آخر !

أجل ، ياربى ، أى ضير ! ...

حذار من العدوى



ما كادت « خالدة » تتحدث فى البيت عما لاحظته فى زميلة المدرسة « زينب » ... حتى رأت أمها تستزيدها تفسيراً ، ثم تقوم إلى جهاز الهاتف ، تطلب مديرة المدرسة ! وأشفقت خالدة ، بينها وبين نفسها : ما تنوى أمى أن تفعل ؟ أتشكو صديقتى إلى المديرة ؟! ولكن... أى ذنب ارتكبتْ حتى تستحقّ الشكوى ؟ إنها تَحُكُّ جسدَها ، ما تفتأ تحك جسدها ، وحسب !

ولكن أمها ... هاهى ذى ، قد نقلت إلى المديرة حديثها بتمامه غير مغفلة منه شيئاً . بل لقد سمعتها تتزيد فيه مضيفة وصفاً لم يكن ليخطر فى بالها حين أخذت تتحدث عما لاحظته فى زميلة المدرسة التى تشاركها المقعد فى قاعة الدرس ! رباه ، ماذا تفعل أمى ؟!

ـ حتى لاتدخل بيتنا هذا ... « بلية » نحن فى غنى عنها !!

* * *

فى تلك الليلة ، هجعت خالدة فى سريرها ، وهى تحسّ أسفاً لامزيد عليه . لماذا باحت لأمها بما رأت فى صديقتها زينب ؟ إنهما معاً فى مقعد واحد ، منذ مطلع العام الدراسى . وإنها لَتُكِنّ لها الود والمحبة لطيفة وناعمة . أبوها يبيع البطيخ الحلبى ، فى الساحة تحت ، والعنب والتين ، فى فصل الصيف ، وفى الشتاء يبيع البرتقال واليوسفى والكَرْمنتينا لطالما اشترى أبى من « دكانته » ، تلك المؤلفة من أعمدة خشبية أربعة قائمة ، تصل ما بينها عوارض قد غطاها قِلْعٌ كبير مهترئ ومرقّع .

إن أبي ليداعبه ، أحياناً ، وهو يحاسبه : « راعنا ، يا أبوعلي . لا تعل علي . نحن أصحاب » ؛ فيجيب الرجل : « ولو يا أستاذ ... أنت زبون قديم ! » ؛ يرد أبي : « بل ... إن بيننا ,, صداقة عائلية .. ، نسيت بنتك زينب ، صديقة في المدرسة لبنتي خالدة ، تجلسان في مقعد واحد ! » ويطلق الرجل ضحكة تبدو من خلالها نواجذه المصفرة وهو يمد إلى أبي يداً تنطوي على الباقي من المبلغ غير مزيد عليه قرش واحد . ويعاتبني أبي ، مازجاً — كعادته — الهزل بالجد: «لا أراني مستفيداً من علاقاتك الشخصية شيئاً . يا خالدة ! أبو زميلتك زينب لا يراعيني بقيراط!» ...

نعم ، تشتركان معاً في مقعد واحد . عادت خالدة تتمثل في خاطرها موقف أمها على الهاتف . لشد ما يقلها أن تعلم زينب ، غداً ، أنها قد نقلت حديثاً عنها إلى أمها ، وأن أمها نقلته إلى المديرة ، والمديرة ......ترى ما تفعله المديرة غداً ؟ أمها أوصتها بأن تتكتم بألا تُشيع أن الحديث عن «الحَكَّة» صدر عنها ! ولكنَّ تلميذةً من تلميذات الصف لم تلحظ ماقي صديقتي زينب ، عداي . لقد استرعى انتباهي أنها تُكْثِر من حكّ صدرها ، وإبطيها ، وساعديها ...

— وتحكُّ كفيها ، أيضاً ؟

— أجل ، يا أمي .

— هل دقَّقت النظر فيما بين أصابعها ، فوجدت حبوباً ، بثوراً ؟

— وإنها لتَتَفَلّتُ القلم من يمناها ، أحياناً ، وتلوي على ظاهر كفّها

اليسرى .... تحكّ ، تهرش وهى تصرف بأسنانها ! أسألها : «ما بالك تحكّين ، يازينب»؟؛ تجيبنى : «لا شيء ، لا شيء» ... وتكف!

فكرتْ : أنا التى نقلتُ الوصفَ الدقيق إلى أمى . مسكينة زينب ! ماذنبها ؟ وأمى قد هتفت إلى المديرة ! هل تُعاقَب زينب غداً ؟ !

— حذارِ أن تلمسى زينب ، ياخالدة ! نحن فى غنى عن بلية تدخل بيتنا ! انهدّت عافيتى ، وأنا أركض هنا وهنا ، وأتعب ، وأشقى . . . فهمتِ ؟ لا تقربى زينب !

* * *

فى الصباح . . . لمحت خالدة ، فى باحة المدرسة ، صديقتها زينب . فأسرعت تُدير ناظريها عنها إلى حيث بنات يتراكضن . وما هى إلا لحظة ، حتى كانت يدٌ تربت كتفَها :

— صباح الخير ، خالدة !

إنها ؛ ينب !

اضطرت خالدة إلى أن تلتفت :

— صباح الخير .

— كتبت واجباتى ، ليلة أمس . ولكنّ مسألةً من مسائل الحساب عَسِرت علىّ . ألا تطلعيننى على دفترك ؟ هل تشرحينها لى ؟

احتوت خالدة وجه زميلتها بنظرة شفوق : لقد أسأتُ إليها ، دَسَسْتُ عليها دسيسة ، فى بيتى مساء أمس . . . وهى لا تدرى !

— أية مسألة ؟

ـ تلك التى أولها : . . . .

أخرجت خالدة دفتر الحساب من محفظتها ، وناولته زينب . تلقَّفتْه هذه بكلتا يديها ، وقد وضعت محفظتها ما بين قدميها . أمعنت خالدة النظر فى الكفَّين ، وهما تقلّبان الدفتر ، لتوقَّفا عند آخر المسائل المحلولة : الأصابع ! ما بين الأصابع ! وتلك هى البثور ! آه ، إنه ذاك المرض الذي يُعدى ! ما تراها ، المديرة، تفعله لها ؟ أتعاقبها ؟ يا حرام ! ما ذنبها ؟ أبوها أبو على ، بائع البطيخ والبرتقال، لا يُعنَى بها ! وأمها تهملها . . .

ـ هو ذا « الحلّ » ، إذن ! كيف غاب عنى ؟

طوت الدفتر ، وردته إليها :

ـ شكراً ، خالدة .

اليد ممتدّةٌ نحو خالدة . إنها تُنَقّل ناظريها من وجه زميلتها ، إلى يدها ، وتتفرّس فى الكفّ ، فى الأصابع ، فى تلك الحُبَيْبات الصغيرة !

ـ لم لا تأخذين دفترك ؟ لماذا تحملقين فى يدى هكذا ؟ !

أسرعت خالدة تستردّ دفترها ، وتقول كالمعتذرة :

ـ عفواً . لقد شرد ذهنى !

* * *

قرع باب قاعة الدرس ، فجأة .

توقّفت المعلمة ، لتُعلى من صوتها :

ـــ تفضلى .

فأطلّت « الآذنة » برأسها من وراء الباب :

ـــ زينب . . . تطلبها المديرة خانم !

مسّ خالدة صاعق من خوف . حين استدارت المعلمة إلى البنات !

ـــ زينب . . . إلى المديرة !

بدت زينب وقد فوجئت ، هي الأخرى ، بهذا الاستدعاء . وتجسّدت لخالدة ، ههنا ، مسئوليتُها عما يمكن أن يلحق بصديقتها من أذى : أنا التى وشيتُ بها إلى المديرة ، وليست أمى ! آه ، ياربى : أىُّ خاطر شيطانىٍّ دفع بى إلى أن أبوح لأمى بالذى رأيت ؟ أى ضرر يحمله جهاز الهاتف للآخرين ؟ زينب صديقة طيبة ، لم تؤذ عمرَها أحداً ، لطيفةٌ وطيبة . أى احتقار ستضمره لى إذا هى علمت أنى أنا الواشية الدسّاسة ؟ وأى ازدراء سألتقى من زميلات الصف ؟ نمّامة دسّاسة ! ولكن . . . من أين لزينب أن تعلم ؟ أخطأتُ ، مرة ، إذ بُحتُ لأمى بما رأيت فى زميلتى . ولكنى لن أخطئ ، ثانية ، فأُفصح لهنّ عما نقلتُ إلى أمى ! فمن أين لهن أن يعلمن ؟

قرعت الآذنة الباب ، ثانية :

ـــ المديرة خانم تطلبك إلى الإدارة !

ازدادت خالدة إحساساً بمسئوليتها عن هذه الحوادث التى تتعاقب اليوم . إن الأمور تتعقّد سريعاً .

علا ضجيج البنات :

ـ أىُّ ذنب ارتكبت زينب ، ياترى ؟

بعضهنّ أعلنّ :

ـ ولكن زينب بنتٌ طيبة !

وخالدة تهتف فى ذات نفسها : إنها لأطيبُ منك ، يا خالدة ! لأنها . على الأقل ، لم تَشِ بإحداانا إلى ... أمها ، أو إلى المديرة !

وأحسَّت أنها باتت « محاصرة » بقوة ما .

* * *

فتح الباب على مصراعيه .

تطلعت خالدة مذعورة : بدت لها الآذنة الآن ، أشبه ببومة ، وهى تحمل مقعداً مُفْرَداً أبيض اللون ، عبرت به الباب فى جلَبَة ، ووضعته هناك ، هناك . . فى تلك الزاوية ، على مبعدة من مقاعد البنات !

ـ يا حرام ! . . سيعزلونها عنَّا ! . . ما بها ! . . ياه !. . ياه !

والحصار ، حول خالدة ، يشتدُّ : أنا الدسَّاسة ، التى كان يجب أن تُعْزَل !

عادت المعلمة إلى القاعة ، مُقَطَّبَةَ الجبين . فصمتت البنات ، رانيات إليها مستطلعات . وفى إثرها دخلت زينب ، تجرُّ خطواتها جرًّا ، منكَّسة الرأس . إنها إطراقة الخزى : حزرت خالدة ! ولكنْ . . حَسَنٌ إن زميلاتها لا يعرفن هذه الحقيقة !

ـ اجلسى هنا ، يازينب !

أشارت المعلمة بإصبعها إلى المقعد الأبيض :
رفعت زينب ، بصعوبة عينيها عن الأرض . فبدا وجهها وقد فرّت منه الدماء ، فهو شاحب أشبه بليمونة .

ـ آنسة ... والله ما فيّ شيء !

أمرتها المعلمة :

ـ اجلسي هنا .

وعينا زينب مُفْعَمَتان بالتوسُّل :

ـ آنسة . . إنها « حساسية » !

ـ هاتي كتبك من درجك ، وضعيها في هذا المقعد .

ـ آنسة ، والله حساسية ، يا آنسة . . . أنا . . لست « جرباء » !

زجرتها المعلمة :

ـ اسكتي . لا تفصحي !

وتعالت أصوات البنات ، فزعات يتمتمن .

صرخت المعلمة :

ـ سكوت .

وزينب تتوسَّل :

ـ ما فيّ شيء . إنها حساسية . . غداً أشفى !

ـ إلى المقعد الأبيض ، زينب . لا تجادلي . وائْتنا ، غداً ، بأمك أو بأبيك .

أمسكت زينب عن الكلام . كانت الدموع قد انهلَّتْ من

عينيها ، وها هي ذى تغسل وجهها . وإنها لتقول بصوت يرتعش :

ـ الله : . . بجا . . . زيها !

فيما هي تُدير عينيها البليلتين نحو . . . خالدة !

وخالدة . . . أحسَّت ، الآن ، وهي تتلقَّى هذه النظرة ، أنها قد رُشِقَتْ بخمسين سهماً ، مائةٍ ، ألف !

اقتربت زينب من مقعدها « القديم » . فازدادت السهام نفاذاً في جسد خالدة . وخالدة قد شملت صديقتها الطيبة بنظرة حنونٍ مستغفرة :

زينب تَرْعَفُ حزناً وألما . قالت وهي تُخْلي درجها :

ـ كلُّه منك ، يا . . . خالدة !

بدر من خالدة استنكار :

ـ أنا ؟ ! !

حين تعالت صرخات البنات من كل جانب :

ـ ياه ! . . خالدة ، إذن ! إنها خالدة التي فَتَنَتْ ! صديقتها خالدة هي التي نقلت إلى المديرة ! زينب ليست جرباء ! كذب ! حساسية . . . إنها حساسية !

نقرت المعلمة بطرف المسطرة على المنصَّة ، غاضبة :

ـ أقول لكنَّ : سكوت !

اندفعت خالدة تبكي :

ـ أنا . . . لم أقل . . . للمديرة شيئاً ! والله . . . لم أقل لها أي شيء !

رنَّ ، ههنا ، الجرس ، إيذاناً بانتهاء الدرس الأول .

والتفّت البنات حول خالدة :

ـ لماذا فتنتِ لدى المديرة ، يا خالدة ؟ ! زينب ، صديقتك ليست جرباء ، إنها حساسية !

وخالدة تكفكف دموعها :

ـ زينب صديقتى . وأنا أحبها . . أحبها أكثر منكن . اسألْنَها .

توجهن إلى زينب :

ـ من أبلغك أن خالدة هى التى وشت بك إلى المديرة ؟

أجابت زينب :

ـ حزرت !

استجمعت خالدة شجاعتها :

ـ أنا . . . لا يمكن أن أفتن،أو أدسّ،عند المديرة،يا زينب !

ـ فمن قالت لها إنى جرباء ، إذن ؟

راغت خالدة من الجواب :

ـ أنا أعلم أنها حساسية . ألم تقولى لى ذلك ؟ ليس الذى فيك جرباً . وغداً تشفين . والآن . . هيّاً نلعب معاً فى باحة المدرسة ، يا زينب !

وخرجت وإياها من القاعة . وهى تعانقها بيد ، وتمسح بالأخرى بقية دموعها .

* * *

بعد أن فرغت خالدة من الاستحمام ، تناولت أمها « قطْنَة »

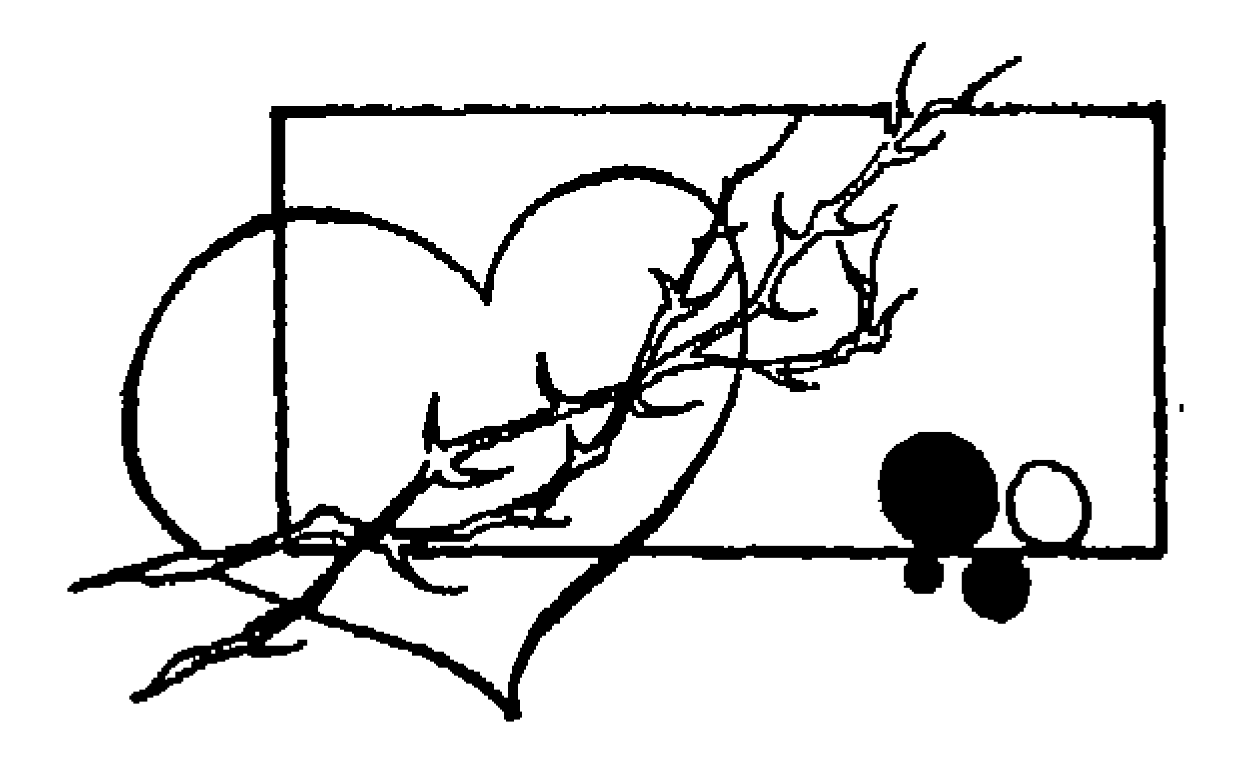
مبلولة بذلك المحلول الأصفر الذى يكوى ! . . وأخذت تمر بها على جسدها ، وتقول فى حنق عظيم :

— من أين لنا بهذا الوباء القذر ؟ أريد أن أفهم : البنت زينب وعُزِلَت عنك ! كيف انتقلت إليك العدوى ؟ ! كم حذَّرتُك !

وأبوها ، الذى ينتظر خروجها من الحمام دامعةَ العين ، يقول لها ، مازجًا — كعادته — الهزل بالجِدّ :

— صديقتك زينب العجيبة . . لا أبوها يراعينى فى بيع البرتقال والبطيخ ! ولاهى تراعيك فى عدوى الجرب ! قطع الله دابر تلك الأسرة !

هدية للصديقة سعاد



تقلّبت « ريما » فى سريرها . ثم أرسلت ناظريها ، عبر النافذة الشرقية ، نحو الفضاء الدامس . . وزفرت :

— ما أطول هذه الليلة !

وحاولت ، دون جدوى ، أن تُغْمِض جفنيها على عينين قد استعصى عليهما النوم .

— ألَن تطلُع ، اليوم ، شمس النهار ؟ !

ثم حانت منها التفاتة إلى أختها « لَمى » ، الهاجعة فى سريرها ، تَغِطّ فى نوم هانئ . فهتفت بينها وبين نفسها : « الحفلة » آه ، قد أقمناها ، وكان « الرّيْع » مبلغًا طيباً ! كيف أنت الآن ، يا « سعاد » ؟ ليتك كنت معنا مساء أمس ،ورأيت بأمّ عينك أىّ فنّ أبدعنا ! ولكنها استدركت فى أسى : وكيف يمكنها أن تحضر ؟ هل فى وُسْعِها أن تسير على قدميها ؟ !

* * *

وعادت الذاكرة بـ « ريما » إلى ما قبل الأيام الخمسة التى مضت . فتراءت لها رفيقتها سعاد ، وهى تسير وإياها الهوينا فى باحة المدرسة . . . فإذا سعاد تتلقّى دفعةً عشواء من بنات طائشات كنّ يتراكضن فتنطرح أرضًا ، وتطلق صرخةً حادة ، ثم . . تروح فى إغماءة ! وتتجمّع حولها بنات المدرسة ، هلعاتٍ ، صائحات ، مشفقات . وسرعان ما تستدعى المديرة الإسعاف بالهاتف ، ليزعق ، بعد قليل ،

نعيبُ سيارة ينزل منها رجلان ، ومعهما « نقّالة » يحملان عليها سعاد ، ويمضيان بها إلى المستشفى ! ومن هناك جاء النبأ الأليم : «سعاد الطيبة ، قد كُسِرت ساقها ! » .

واستشعرت ريما ، منذ ذلك اليوم ، حزناً لا مزيد عليه . فقد دخل فى رُوعها أنه كان يَسَعُهُا — لو أنها كانت أكثر حذراً وأسرع بديهة — أن تقى رفيقتها شرَّ السقطة ، وهى التى بَصُرت بالطائشات وهنَّ يندفعن اندفاعهنَّ الجنونى نحوهما ! ومما زاد فى حزنها أن سعاد من أسرة رقيقة الحال ، فأبوها بائع متجول ، وهم يسكنون قبواً لا تدخله الشمس ولا يتخلّله الهواء . ولكنها أحست فرحاً حينما عرفت فى اليوم التالى ، أن إدارة المدرسة قررت أن تدفع من « صندوق التعاون » نفقات العلاج كلّها ، بل إن معلمتين من معلمات الصف ، قد تعهّدتا بالذهاب إلى بيت سعاد لتلقينها دروس الحساب والقواعد إلى يوم تستطيع السير على ساقيها !

وليست تدرى ريما ، فى غمرة الأريحيّة التى عصفت بإدارة المدرسة كيف تفتّق ذهنها ، هى الأخرى ، عن « فكرة» فيها خير لرفيقتها التى تُشاطرها الجلوس فى مقعد واحد . وما أسرع ما سَكَبَتْها فى أذن أختها الصغيرة « لمى » . . . فإذا لمى تستطير فرحًا ، وإذا هما تسعيان ، حالا ، إلى حيث المديرة !

وعلى باب الإدارة سألتهما « الآذنة » عما تبغيان، حتى تستأذن لهما بالدخول فأوشكت لمى أن تفصح ، لولا أن نَحّتْها ريما جانباً لتقول :

— نريد أن نعرض على المديرة « اقتراحاً » بشأن رفيقتنا سعاد !

ثم إن « ريما » عرضت على المديرة اقتراحها : أن تقام ، فى صالة المدرسة ، حفلة صغيرة ، تقدم فيها كل تلميذة ذات فن شيئاً من فنها يسر البنات، ويكون حضور الحفلة لقاء « رسم » تدفعه كل منهن . . . ثم يشترى بالحصيلة شيء نافع تقدمه التلميذات إلى سعاد ، القعيدة فى بيتها ، تنسيها بعض مصابها !

التمعت عينا المديرة — كذلك لاحظت ريما — قبل أن تتوجه بالسؤال إلى أختها :

— وماذا يمكنك أن تقدِّمى من فنك ، أيتها الصغيرة لمى؟

أجابت لمى :

— أغنى أغنية « ماما يا حلوة » !

— وأنت يا ريما ؟

أعلنت ريما مزهوّة :

— أعزف على الكمان عزفاً بتُّ أحسنه بعد طويل التمرين ، يا آنسة !

وههنا قالت المديرة ، وقد أشرق وجهها بابتسامة :

— إنكما لتؤكدان للإدارة أنكما تلميذتان محبتان للفن . بورك فيكما . (ولكنها أضافت ، وقد اتخذت هيئة أخرى) اسمعى يا ريما ، وأنت يا لمى : لقد خرجنا، بالأمس ، من الامتحان الأول . ومثل هذه الحفلة تحتاج إلى تحضير وتدريب . . . ومعلماتكن مشغولات ،

هذه الأيام ، بتصحيح أوراق الآمتحان وإعداد النتائج ! (وأضافت) على كل حال، لقد قامت إدارة المدرسة بأداء واجبها نحو زميلتكما سعاد كما تعلمان ، أيتها العزيزتان ! !

خرجت « ريما » من غرفة الإدارة، وقد استبد بها حزن . وما كان ليخفف من عظيم حزنها أن المديرة ودعتها ، هى وأختها، بصوت بلغ سمع الآذنة على الباب :

ــ أشكر لكما مشاعركما النبيلة ، أيتها الصبيتان. سلما على أمكما !

فإن ألف شكر عندها لا يعدل أداءها فنها أمام « الجمهور» لحظة واحدة ، ولا إحساسها بصنيع الخير تجاه صديقتها الحميمة سعاد !

وقد جاءت أمها مساءً تبكى . وقصت عليها ما كان من اقتراحها، ومن اعتذار المديرة ! فأبدت أمها إعجابها بالفكرة ، بقدر ما أسفت للاعتذار ... ولكنها طيبت خاطرها بأن معونات قد قدمت إلى رفيقتها على كل حال ، فلم هذا الحزن كله ، وعلام البكاء ؟ وما فات أمها أن تحدث أباها ، والأسرة مجتمعة على مائدة العشاء ، بالاقتراح ، وبالاعتذار ، وبالبكاء جميعاً .

ومن عجب أن رأت « ريما » أخاها الأكبر « خالد » يستفصحها :

ــ هل لى أن أسألك سؤال المديرة ، يا ريما : ما فى وسعك أن تقدمى على المسرح ؟

قالت ريما :

وأجيبك جواب المديرة : أعزف على كمانى !

فقهقه خالد بفظاظة :

– أجل ، تلك الآلة التى ثقبت آذاننا باللعب عليها فى تمارينك الأسبوعية !

فعاتبته أختها « سوسن » :

أراك تسخر ، يا خالد ؟

وأبوها معتصم بالصمت ، وكأنه غارق فى تفكير .

– بل أنا أتحقق من مقدار ما تملكه أختانا من الفن ! وأنت ، يا لمى ؟

– أنا أغنى أغنية ، واثنتين ، وثلاثا . . . أتريد أن أسمعك ؟

– لا ، ليس على الطعام ! وماذا عندكما غير هذا ؟

وقد اندفعت ريما ، ههنا ، تقول بحماسة وقد كان أخوها « سعد » الصغير يُنقِّل ناظريه بين الوجوه :

– إن أردت الجد . . . لو أن المديرة تعهد إلينا ، أنا ولمى ، بملء برنامج الحفلة كله ، لما صعب علينا !

فهتف خالد :

– الله ، الله ! لأنكما فنانتان قديرتان !

وأحست ريما أنها تهان . وهمت بأن ترد على أخيها الكبير بما . . . لولا أن زجره أبوها ، الذى خرج أخيراً عن صمته :

– كُفَّ عن هذا ، يا خالد !

– ولكنها تدعى ادعاء عريضاً ، يا أبت !

وتوجه إليها أبوها بالسؤال :

ــ أأنت واثقة ، يا ريما ، من أنك لا تغالين فى تقدير مواهبك ؟

ــ أجل ، يا أبى . وإن المسألة أبسط مما يتصور أخى خالد . أستطيع ، أنا ولمى وعدد من زميلاتى أختارهن ، أن نمثل أكثر من تمثيلية صغيرة مما نشاهد فى التليفزيون .

ــ والتحضير لهذا « المشروع » ، ألا يشغلكن عن دروسكن ؟

ــ ساعة فى اليوم ، أو ساعتان ، على مدى ثلاثة أيام أو أربعة :

ــ طيب . . . (وأمعن تفكيراً) ما رأيكما ، أيتها الفنانتان البارعتان ، فى إقامة حفلتكما . . . هنا ، فى البيت ؟ وتدعوان الرفيقات لحضورها ؟ (واستدرك) طبعاً ، بعد الاستئذان من ربة البيت ، أمكما .

لم تصدق ريما هذا الذى تسمعه أذناها . فالتفتت إلى أختها لمى ، فوجدتها مبهوتة هى الأخرى ، فلكزتها بمرفقها :

ــ قولى شيئاً ، يا لمى ! لماذا أنت صامتة ؟

ــ وماذا أقول ؟

ــ قولى إننا موافقتان !

هتفت لمى من فرط الفرح :

ــ يعيش بابا العظيم !

وهمت ريما بأن تردد الهتاف : « يعيش ، يعيش ! » ، لولا أن أمها انبرت تسأل مقطبة الجبين :

ــ ماذا ، يا أبا خالد ؟ حفلة . . . تقام فى . . . بيتى ؟

— نعم ؟

— وعلى أى « مسرح » من « مسارح » البيت ترى أن نقيمها ؟

— على « مسرح » نعده فى « قاعة الاستقبال » ، يا عزيزتى وإنها لمكان فسيح .

— والأثاث الذى فيه ؟

— نزيح بعضه جانباً ، ولا خوف على بعضه الآخر .

— أو تحسب أنه ينقصنى مزيد من التعب والشقاء ، حتى تقترح إقامة « حفلة عامة » فى بيتى ؟ !

— ولكن البنتين ، كما ترين أيتها العزيزة ، راغبتان فى أداء فنهما وفى صنع الخير . والمديرة اعتذرت . فَلْنُتِحْ ، نحن ، لهما الفرصة . أىّ ضير ؟ إن التربية الحديثة تحتم على الأهل أن يتبنّوا « مشروعات » أولادهم ، ما دام رائدها النفع الخاص والعام . . . بل إن على الأهل أن يشجعوهم عليها ، ويحضوهم حضّاً . وإنك لربة بيت تقدرين . .

ورأت ريما أمها وهى تهز رأسها ، أمام منطق أبيها الراجح :

— حسن لا بأس . . . إذا وعدتنى البنتان بالمحافظة على النظافة والهدوء والنظام !

هتفت ريما ولمى بصوت واحد :

— نعدك ، يا أماه .

وعلا ، فجأة ، صوت سعد الصغير :

— ريما ! أريد أن أشترك معكما فى التمثيل ! !

وأعلنت سوسن :

ــ أنا أعد لكما حواراً سهلا عن قصة « سَنْدريلاّ » !

وهتفت لمى من جديد :

ــ تعيش ماما الحبيبة !

فرددت ريما :

ــ تعيش، تعيش ! (وأضافت) أنت أحسن « ماما » فى الدنيا !

وكان لا بد لريما من أن تُشيع ، فى اليوم التالى ، الخبر فى المدرسة : حفلة تقيمها فى بيتها ، تحضرها من ترغب من التلميذات لقاء « رسم » معلوم ، ليشترى بالريع أهدية تقدم إلى العزيزة سعاد ! فتهافتت عليها البنات ، ما بين متسائلة ، ومهنئة ، وراغبة فى الحضور ، وحريصة على الاشتراك فى تقديم فنها الجميل !

وأما أخوها خالد ، الذى أبدى سُخْرَهُ فى اليوم السابق، فقد عرض الآن خدماته بأن يقوم بدور « المخرج » ! على حين عكفت سوسن على إعداد نص مبسط لقصة « سندريلا » ! ولكن سعداً الصغير أبى ، بإصرار عنيد ، أن يكون فى عداد المتفرجات ! فما كان من ريما إلا أن اقترحت عليه :

ــ أنت تقدم أنشودة « وطنى » !

وقد نشطت الأسرة ، فى يوم الحفلة ، نشاطاً لا عهد للبيت به : فأخليت قاعة الاستقبال من بعض أثاثها . . . وأقيم « مسرح » من منصات ضُمّ بعضها إلى بعض ! ورُفع فى مقدمته ستار عريض ! وصفت

الكراسى ، ما هو فى البيت منها وما استعير من بيوت الجيران ! وتوافدت بعض البنات مبكرات ، ليقمن بآخر التجارب التمثيلية . وكان سعد لصغير يساعد فى الترتيب قليلا ، ويعبث بنظام الحفلة كثيراً . وما كفّ عن عبثه إلا حين هددته ريما بإلغاء دوره إن لم يركن صنيع الأطفال العاقلين !

وتوارد الجمهور فى الموعد المحدد . وكان أمراً شيقاً لريما ، وممتعاً لها غاية الإمتاع ، أن ترى إلى المتفرجات ، وهن يجلن بأبصارهن فى الأرجاء، ويرين الستار ، وهو ملاءات قد خيط بعضها إلى بعض ، ثم شدها من أعلاها حبل رفيع . وعلى أحد الجدران ، هناك ، علقت لافتة كانت أمها أشارت على لمى أن تخط عليها : « حافظى على الأثاث يا أختاه» ! وما كان ليفوت لمى أن تصنع أخرى تقول فيها : ممنوع أكل البزر » !

افتتحت ريما الحفلة باسم الله والوطن . ثم أفاضت بالحديث عن دواعى إقامة هذه الحفلة « المتواضعة » ، مؤكدة محبّتها لصديقتها العزيزة سعاد ، مشيدة بأخلاقها الرضية ، ومذكرة بما استشعرته الرفيقات من حزن لما أصابها فى باحة المدرسة فى ذلك اليوم المشئوم !

ثم أدت بعض البنات الأناشيد على المسرح . وعزفت ريما على كمانها لحناً مما تلقنت ، فأبدعت فى العزف ، وصفق لها الجمهور طويلا !

وكذلك صفقن للمى إذ غنت بصوتها الحنون : « ماما يا حلوة » !

حتّى إذا جاء دور سعد الصغير ليؤدى أنشودته الوطنية ، أشفق على نفسه من « مواجهة الجمهور » . . . فإذا هو يولى هارباً ، تاركاً

القاعة لروادها ، ليتوارى فى ركن عميق من أركان البيت ! وحاول أبوه، عبثاً ، بث الطمأنينة فى نفسه لعله يغريه « باعتلاء خشبة المسرح » فالبنات ينتظرون ، مما اضطره آخر الأمر إلى أن يستعين بخالد ، الذى حمله بين ساعديه وحطه على المسرح ، بين تصفيق البنات وضحكهن وتهليلهن . . . وإذا الخجل يزايله ، فيروح ينشد بجرأة وحماسة ! بل إنه، بعد أن استعذب ما حظى به من التصفيق والإعجاب ، راح يتعلق بأذيال أخيه ، مطالباً إياه بإلحاح ، أن يعيده إلى المسرح لينشد مرة أخرى !

وقدمت ريما ولمى وصويحباتهما ، تمثيلية « سندريلا » . وكان خالد قد اتخذ له موقفاً خلف « الكواليس » ، يلقن منه « الممثلات » أدوارهن ، ويوجههن بصوت خفيض !

وقد انفردت لمى بالمسرح ، مرات ، لتحكى حكايات : « عقلة الأصبع » و « القداحة العجيبة » و « تمر حنة » و « عصفور الجنة » ...

* * *

تقلبت ريما فى سريرها ، وهى ما تزال ترنق فى سماء ذكرياتها القريبة : كل شىء قد سار فى الحفلة ليلة أمس ، على ما يرام ؛ ما كدّر عليها هناءتها إلا أن الحبل ، الذى شد به الستار ، قد انقطع قبيل نهاية الحفلة ، فأثار هرجاً بين البنات ! لشد ما جعله خالد رفيعاً واهياً !!

— ولكن . . . ما بال شمس النهار لا تشرق !

لقد كان ريع الحفلة مبلغاً طيباً ! حتى إنها وجدت نفسها تصيح ،

فى انصراف البنات ، طرباً :

— ماما ! إن الريع أكبر مما توقعنا . انظرى ، يا ماما !

وأضافت لمى :

— لقد امتلأت القاعة بـ « المتفرجات » ، حتى أتينا بكراسى الحمام الصغيرة .

ولكن أمها ما أبدت فرحة ، بل هزت رأسها فى أسف ظاهر :

— أجل ، أيتها الفنانتان البارعتان ! لقد قلبتما لى البيت رأساً على عقب ! كم يتعين على أن أشقى ، طوال غد ، قبل أن أعيد كل شىء إلى موضعه !

على حين سأل أبوها ، وقد كان يصغى :

— ماذا تنوين أن تشترى بالمبلغ لصديقتنا سعاد ، يا أم خالد ؟

أجابت ، وقد تطلقت أساريرها بعض الشىء :

— لا أرى خيراً من معطف صوف يقى البنت برد الشتاء ، متى سارت فى القريب على قدميها .

وهتفت ريما ، وهى ترسل ، من جديد ، ناظريها نحو الفضاء :

— هو ذا الفجر قد أسفر !

وفكرت : لقد كانت ليلة ؛ برغم السهاد ، من أعذب الليالى !
حلمت ، فى السويعات القليلة التى أغفت ، أنها تعزف على مسرح حقيقى ، فى صالة تضم جمهوراً غفيراً . . . تعزف على كمانها — الذى لم يعد ذلك الكمان المتواضع — ألحاناً صعبة الأداء ، انتزعت بها الإعجاب ،

واستحقّت الثناء والتقدير ، فقررت الحكومة أن . . . توفدها للدراسة الموسيقى فى ديار الغرب ! !

بل إنها حلمت أنها نزلت مع أمها إلى السوق ، واشترت معطفاً صوفيًّا رائعاً . . . وحملته إلى المدرسة ، وعرضته على المديرة التى سألتها : « ما هذا يا ريما ؟ » ؛ أجابتها مزهوة : « إنه لصديقتى سعاد . قد اشتريته من ريع الحفلة التى أقمناها فى بيتنا ، يا آنسة ! » ، وودت لو تكمل : « الحفلة التى رفضت إقامتها فى المدرسة ! » . . . فازداد إعجاب المديرة بحماستها ، وفنها ، وحبها للآخرين . ثم إنها أخذت منها المعطف الجميل ، لتطوف به على التلميذات فى قاعاتهن : « انظرن ، يا بناتى ! هذا ثمرة جهود ريما ، وأختها لمى ، ومؤازرتكن . إنه هدية لزميلتكن العزيزة سعاد ! » . . . والبنات ، فى ذلك ، يتمتمن مفتونات : « يا سلام ! أختان فنانتان منذ الصغر ! » . . . .

وهتفت ريما ، أخيراً :

ــ هى ذى الشمس . . . قد طلعت !

* * *

حملت ريما صندوقاً من الورق المقوى ، قد لُفّ بقرطاس زاهى الألوان ، وعقد بشريط حريرى أحمر . وتوجهت به إلى بيت صديقتها سعاد ، ترافقها لمى وإحدى رفيقات المدرسة .

رأت سعاد مضطجعة فى فراشها ، تحوط بساقها الأربطة البيضاء ، ويخالط وجهها شحوبٌ أصفر .

قدمت إليها الصندوق . فتساءلت سعاد فى استعجاب :

ـ ما هذا ، يا ريما ؟ !

ـ لقد أقمنا فى بيتنا ، حفلة تمثيلية ، يا صديقتى . . . حضرتها رفيقات المدرسة .

وتابعت لمى :

ـ وجعلنا الدخول إليها لقاء رسم . فتجمع لدينا ما اشترينا به هذه الهدية لك .

فضت سعاد الصندوق الكبير ، فى لهفة وشوق . وإذ وقعت عيناها على المعطف الجميل ، راحت تشكر صديقتها ريما وأختها لمى ورفيقاتها . ثم ما لبث أن ندّعنها صوت راعش :

ـ كنت أتمنى . . . لو أتيح لى أن أشهد الحفلة مع رفيقاتى ، فإنى أكون أكثر سعادة !

وسرعان ما أعلنت ريما :

ـ إننا على استعداد لأن نعيد الحفلة ، متى تم شفاؤك .

ـ شكراً ، شكراً ، يا صديقتى .

وأضافت لمى :

ـ ونزيد عليها مشاهد جديدة ، وأغانى وحكايات !

وضمت سعاد المعطف الجديد إلى صدرها ، وقد اخضلّت عيناها بدموع الفرح ، وقالت :

ـ لقد أنسيتمانى مصابى ، أيتها الصديقتان النبيلتان .

* * *

وفى طريق العودة إلى البيت ، أكدت لى :

ــ فى الحفلة القادمة ، التى ستحضرها سعاد ، سنشد الستار بحبل متين ، لا يكون رفيعاً ولا واهيا !

فلكزتها ريما بمرفقها :

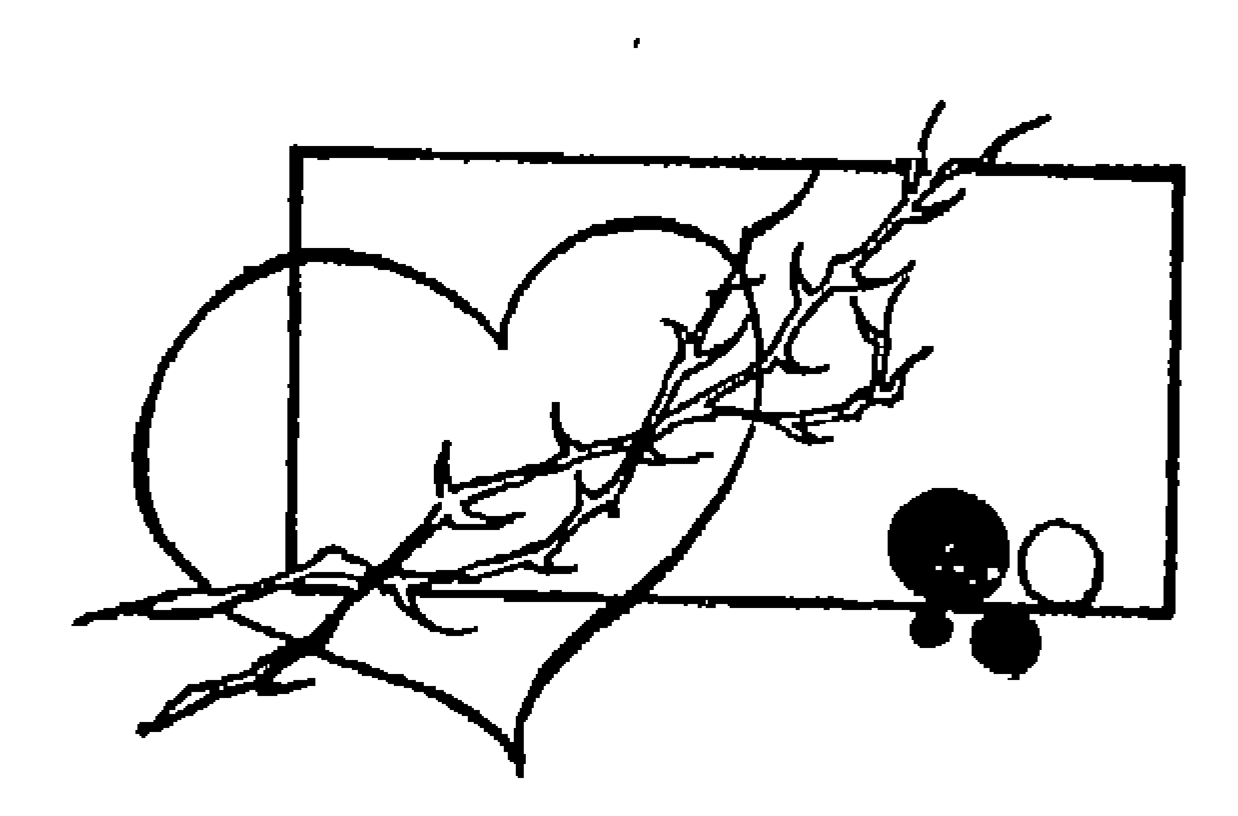
ــ فكرى أولا ، يا أختاه :

من منّا التى تجرؤ على مفاتحة ماما بإقامة حفلة ثانية فى البيت؟ ! !

فما كان من لمى إلا أن غمغمت ، وعيناها إلى الأرض :

ــ آه . . . حقًّا ، حقًّا !

عیشاں سوداواں



« نوران » طالبة مثالية فى مدرستها . فهى ، فضلا عن تفوقها على لداتها فى دروسها ، فتاة مرحة ، رصينة ، لبقة ، قد اجتذبت اهتمام المديرة والموجهات ، وحظيت بحب معلماتها ، وبإعجاب مدرسة الفتوة بخاصة ، التى رأت فيها فتاة « انضباطية » تعشق النظام فى أثناء التدريبات اليومية ، حتى لقد عينتها ،على حداثة سنها ، « قائدة سرية » ، وكلفتها بمهمة رفع العلم[*] صباح كل سبت .

ونوران تعرف هذه المزايا فى نفسها، وتعرف أن من ملكاتها حب الشعر ، وهوايتها الأدب ، وغرامها بالموسيقى ، وبراعتها النسبية فى فن الرسم . . وتعرف ، عدا ذلك ، أنها صبية « حلوة »، كما يزعم الآخرون — بغير حق ! — أحياناً ، ولكنها كانت حريصة على ألا تدع لهذه « المعرفة » أن تحملها على جناحى الغرور الفتاك : ولطالما تلقت من أبيها ، الساهر أبداً على توجيهها، نصحه بأن تحافظ على نقاء نفسها ، فيقول :

— خير ما فى الإنسان الجيد تواضعه الصادق الجميل ، يا نوران !...

على أن أمراً يحيرها الحيرة كلها فى المدرسة : فبقدر ما تحبها موجهة صفها « الآنسة هدى » ، وتوليها اهتماماً ، وترئسها على بنات الصف الأ(العاشر) لتنظم اصطفافهن ثم سيرهن نحو قاعة الدرس، كانت موجهة أخرى ، هى « الآنسة وسيلة »، تناصبها نوعاً من العداء السافر ، والغامض الأسباب والمسوغات ، كلما سنح لها سانح من الفرص ،

فهى لا تخاطبها إلا ووجهها مختلج بالغضب والاستياء — لا تدرى لم ! — وإذا صادف أن مرت بها فى الباحة لم يكن نصيبها منها إلا نظرة شزراء! هذا إذا لم تستدعها إليها ، بإشارة من يدها غير مستلطفة، لتسألها شيئاً أو توجه إليها انتقاداً لا محل له ! . . . .لذلك لم تستغرب نوران — وإن تألمت أبلغ الألم — ساعة ناد تها الآنسة وسيلة، لتشدها ، من أعلى كمها ، هكذا ، فى صورة أقل ما توصف به أنها تعبير فاضح عن عاطفة سيئة يكنها إنسان لإنسان !

والحق ، أن أول ما بدا لنوران من الآنسة وسيلة كان فى مطلع العام الدراسى ،، وللموجهة مستجدة فى المدرسة . وقعت عينها عليها وهى فى الباحة ، فأمعنت فيها النظر قليلا، ثم ما لبثت أن استدعتها بتلك الإشارة غير المستلطفة من يدها ، منادية إياها بملء فيها :

— أنت ، أنت ! تعالى هنا .

ثم تسألها بامتعاض :

— لماذا تُكَحِّلين عينيك ، أيتها الطالبة ا . . . نجيبة ؟ !

ولم تكن نوران بالفتاة التى ترضى أن تمر بالمرود على عينين قد وهبهما الله حوراً بادياً وهدباً أسود يغنيان عن مراود الكحل الغناء كل الغناء . ولكن الموجهة التبس عليها الأمر. ونوران تصحح لها الظن دون جدوى ! . . . وقد انتهت المحاورة بأن انتهرتها الموجهة مختلجة الشفتين فى غضب :

— امشى من قدامى . . إذا رأيت عينيك ، مرة ثانية ، مكحلتين ... فسوف أعاقبك !

وقد حدثت نوران ، فى مساء ذلك اليوم ، أباها. فأمسك عن الكلام لحظة . . . ثم أعلن وهو يبتسم :

– هذا جزاء من وهبت عينين مثل عينيك، يا ابنتى ! إذن . . . فقد حسبت أن فيهما كحلا أسود! (وضحك طويلا) كحلا أسود !! (ثم استفصحها) ما لون عينى آنستك، يا نوران ؟ بل ما شكلها ؟ أهى . . . ؟ أم أنها . . . ؟ أو هل هى متزوجة وذات أولاد؟ (ثم انتهى إلى القول) إن من المتوقع أن تظهر من هن فى مثل حالها عواطف من هذا القبيل ، نحو من هن مثلك، يا ابنتى ! فتجملى بالصبر والأناة . إن هذا فى جبلة الإنسان .

وكان لا بد لنوران ، مع هذا الرأى الذى أعلن أبوها بين المزاح والجد ، أن تتدرع بالصبر بإزاء مضايقات الآنسة وسيلة ، وهى ترى منها فى كل حين عجباً، فتعود إلى البيت لتحدث والديها : فتتميز أمها غيظاً لما تبدى الموجهة من فنون العداء نحو بنتها، ويكظم أبوها ما فى صدره ببسمة تنتهى إلى أن يقول فى أسى :

– ذلك من طبائع المرأة ، يا نوران. إن مثل هذا لا يقع فى مدارس الذكور ، يا ابنتى . تجملى بالصبر ، ولا تجزعى !

صبرت نوران ، ولم تصبر أمها . . . فذهبت يوماً إلى المدرسة ، وزارت المديرة ، التى أشادت بتربية نوران إشادة ألجمت لسان الأم عن أن تعلن مآل شكواها من تلك الموجهة القاسية. ثم تحولت إلى غرفة الموجهات ، وما كان فيها غير الآنسة هدى ، التى انكفأت ، الأخرى ،

تطرى نوران إطراء لم تكن الأم لتتصور أو تتوقع :

ــ بنتك مثال للطالبة المجدة ، المرحة ، التى يعز نظيرها فيمن نرى من البنات . . . كم عمرها ؟

أجابت الأم :

ــ ستة عشر

فتمتمت الآنسة هدى بعبارات لم تتبينها الأم ، ولكن خيل إليها أنها سمعت كلمات مثل :« يا خسارة ! » . . . . « صغيرة بعد! » ...

واتفق ، فى تلك الأثناء ، دخول مدربة الفتوة إلى الغرفة. وما كادت تعلم أن الزائرة هى أم نوران حتى انطلق لسانها :

ــ أحسن الفتيات عندى انضباطاً هى نوران . كلفتها ، العام ، بمهمة رفع العلم . وهى مرشحة لأن تكون « الأسبوعية » ، التى تهتف فى ظلال العلم، فى العام الدراسى الآتى ، عندما تمسى فى أعلى صفوف المدرسة !

غادرت الأم المدرسة وما قضت من الوطر إلا أن عادت محملة بآراء إعجاب بابنتها غير محدود . فهان عليها ، بعدها، ما تلقى البنت من مضايقات موجهتها . وأخذت تحضها مثل أبيها ــ على التجمل والتحمل . . وقد أصاخت نوران كدأبها ، ولكن للصبر حدوداً . . . أفيعتبر ، من قبيل التحلى بالصبر والأناة ، أن تسكت على الآنسة وسيلة إذ أمسكت بها ، من أعلى كمها ، بكلتا أصبعيها ، وشدتها هكذا

إلى غرفتها ، فى صورة أقل ما توصف به أنها . . . . . ؟ ؟

* * *

كان المرح قد استخف نوران ، فى ذلك اليوم الجميل ، واستهواها الصبا ، والشمس الدافئة ، والهواء العليل ، فلخلت الحلبة ترقص بين أترابها . بدأت إحداهن الرقص ، وهن فى قاع المدرج الأثرى ، ولما صعدن إلى قاعدة المسرح أخذت أخرى بالرقص ، وتبعتها ثالثة ، فرابعة ، فخامسة . . . . فاستخفها — هى الرصينة — المرح ، فما كان منها إلا أن تقدمت وسط البنات ترقص ، وترقص ، وتبدع فى رقصها . كفت البنات الخمس ، واصطففن جانباً يشهدن . وصفقت الزميلات على إيقاع ، وقد تبدى فى عيونهن طرب ومرح وإعجاب ، ولكن أخريات كانت عيونهن تشى بعاطفة من نوع ما ! والسياح والسائحات ، الذين كانوا جلوساً على المدرج يستروحون أنسام الشرق ويستمتعون بشمس السماء ، قد نهضوا ، هناك فوق ، واقفين . . . وقد التمعت بين أيديهم آلات التصوير !

هتفت إحدى البنات مجبورة :

— الأجانب يلتقطون لنا صوراً !

وشهقت أخرى فى استعجاب :

— أوه ! تلك آلة تصوير سينمائى ، فى يد ذاك الأشقر الطويل النحل يدور بها علينا ، ، ثم . . . يوجهها إليك ، أنت أنت ، يا نوران !

ونوران تتابع رقصها ، الذى جاء ، مع غرامها بالموسيقى ، عفو الخاطر والإلهام .

صرخت ، فجأة ، إحداهن بصوت يرتعش :

ـ كفّى عن طيشك ، يا نوران ! إنك لتسيئين إلى حياتنا الشرق ! ما تراهم يقولون عنا فى بلدهم ، غداً ؟

توقفت ، ههنا ، نوران عن الرقص وتساءلت مبهورة النفس من تعب :

ـ وماذا تحسبين يقولون عنا ؟

كان الصوت المرتعش قد استحال إلى باك : أدارت صاحبته وجهها إلى وراء . . .

وانبرت فتاة تقول فى حماسة :

ـ إن الرقص أجمل تعبير عن المرح والسعادة . نوران تستحق منا الثناء ، لا أن تثورى وتبكى ، لأنها منحت غرباء عن شعبنا فرصة أن يشهدوا كيف نلهوا ، لهونا البرىء ، فى ساعات فراغنا !

وإذ عادت نوران من رحلتها مساء منهكة القوى ، علمت أن فى غرفة أبيها « خطاباً » قد جاءوا يطلبون يدها . ثم علمت أن أباها قد اعتذر لهم عذره المعهود :

ـ نوران بنت ستة عشر ، صغيرة ، لا أزوجها ، ولا أخطبها ، حتى تدخل الجامعة فتنال أعلى مراتب العلم . بنتى ذكية وناجحة !

وقد حدثت ، فى الصباح التالى ، بعض صويحباتها ، عن الخاطب الذى زارهم . . . فطربن لهذا الحديث ، وضحكن ، وعلقن عليه

تعليمات شتى ! ولعل إحداهن تسللت ، فى الفرصة الأولى ، إلى غرفة الموجهات ، فهمست ، فى أذن الآنسة هدى ، همسة ما . . . ذلك أن الموجهة الطيبة لمحتها فى الصالة بعد دقائق ، فنادتها :

— نوران ، نوران !

— نعم ، هدى خانم ؟

— سمعت أنك . . . تُخْطبين !

استغربت نوران :

— أنا أخطب ؟ ! (وقد اعتراها ارتباك) لا ، لا !

— ألم يأتكم خُطّاب ، ليلة أمس ؟

— من أين علمت ، هدى خانم ؟

— حدثتنى الحمامة !

— جاءوا . . . ولكن أبى اعتذر لهم بأنى صغيرة السن .

وطارت نوران إلى صويحباتها :

— من منكن حدثت موجهتنا بحديث خطّاب أمس ؟ لتعترف « الحمامة » التى نقلت الخبر !

وأنكرن جميعهن ، وضحكن طوال الفرصة . وطغى على نوران ، خلال الدرس الثانى ، إحساس جميل هو مزيج من الفرح والسعادة والظفر والنجاح ، وبالاختصار : إحساس بأنها امتلكت العالم . وكان هذا الإحساس الرائع كفيلا بأن يلازمها الفرصة ، والدرس الذى يليها ، والنهار كله ، وبضعة الأيام الآتيات ، لولا أن . . .

سعت نوران ، فى الفرصة الثانية ، إلى غرفة الموجهات لتسأل الآنسة هدى فى أمر . قرعت بإصبعها زجاج الباب ، ودخلت . أدارت لحاظها فى أرجاء الغرفة :

ــ هدى خانم . . . ليست هنا ؟

وتراجعت إلى الوراء . كانت الآنسة وسيلة تحادث بعضهن ، وظهرها إلى الباب . وشدت نوران الباب وراءها بهدوء كما فتحته . ولكن بدا أن الموجهة التفتت نحو الباب لحظة إغلاقه ، فلمحتها . . . فإذا هى ترفع من صوتها مطلقة نداءها عينه :

ــ أنت ، أنت . . . تعالى !

كانت نوران قد أغلقت الباب ، وسارت فى الصالة بضع خطوات ، وهى تفكر : أتراها تقصدنى ، أنا ؟ وتوقفت فى منتصف الصالة : لا بد أ اسمى عندها ، لا يعدو ضمير المخاطبة المكرر : « أنتِ ، أنت ! » . وارتدت إلى الغرفة تبغى المثول أمامها .

فى هذه اللحظة فتح الباب ، وبدا من ورائه وجه الآنسة وسيلة الغاضب ، وهى تقول فى صوت حانق :

ــ أناديك . . . فتهربين ؟ !

أجابت نوران فى دعة :

ــ وسيلة خانم . . لم تناديني باسمى . . . وقد فكرت ، وقدرت أنك تقصديننى . . . وهأنذى أعود إليك . . . نعم ؟ جئت أرى هدى خانم . . .

لم تأبه الموجهة بما قالت نوران . فقد كان همها إلى شيء آخر : اندفعت نحوها ، ، ومدت إليها يداً ، وأمسكت بها ، من أعلى كمها الأيسر بنهايتى إصبعيها ، كما يمسك السليم الأجرب فى حالة اضطرار .·. وأخذت تشدها إلى غرفتها شداً ، على مشهد من بنات اتفق مرورهن فى الصالة ، وعلى مرآى أولئك اللواتى كن داخل الغرفة !

أحست نوران أنها تهان ! احتجت :

— لماذا تشدينى هكذا ، يا آنسة خانم ؟

— وكيف تريدينى أن آتى بك ؟ أحملك على الراحات ؟ ! هيا قولى لى : ماذا فعلت ، فى رحلة أمس إلى مدرج « بُصْرَى الشام » ؟

بادرت نوران تقول :

— إن كنت تعنين الرقص ، يا آنسة . . . فإننا قد رقصنا ؛

— رقصت ، إذن ؟ !

— بلى .

— وبوقاحة تعترفين ؟ !

أحست نوران أنها تصفع صفعاً أليماً :

— إنى أقول الحقيقة ، يا آنسة . . . حقيقة ليس فيها ما يشين . فلا داعى لأن تصفينى بالوقاحة !

وأقبلت ، فى هذه الأثناء ، الآنسة هدى .

— . . . ومشاكسة ! فظاعة : ما رأيت أكثر منك وقاحة !!

— احتجت نوران :

ـ أرجوك ، وسيلة خانم !

ـ أرجوك ، وسيلة خانم !

تساءلت الآنسة هدى ، فى رفق :

ـ ماذا فعلتِ ، يا نوران ؟

ردت الآنسة وسيلة :

ـ أرأيت ؟ ! بناتنا يأتين خلاعة فى محل عام ، وعلى مشهد من رجال يقومون بتصويرهن ! !

سألت الآنسة هدى فى غير تصديق :

ـ ونوران فعلت ذلك ؟

ـ كانت أكثرهن خلاعة !

تعيَّن على نوران أن تدافع عن نفسها ، وهى تحس وجهها يشتعل خِزْياً :

ـ كنَّ بنات خمساً ، وأنا سادستُهنَّ . رقصنا ، داخل حلقة من زميلاتنا ، فى رحلة أمسِ ، ياهدى خانم .. وأى ضير ، فى هذا ، ونحن فى ساعة لهو برىء ؟

جأرت الآنسة وسيلة بصوتها الغاضب :

ـ و « الكَمِرات » ، فى أيدى الأجانب ، التى دارت ؟ ياقلَّة الحياء ! ياللأخلاق التى انعدمت ! جاءتنى إحدى البنات ممَّن كنَّ فى الرحلة ، صباحاً ، تبكى وتشكو . لو أنى نقلت الحادثة إلى المديرة ، فأى إجراء صارم يمكن أن يُتَّخذ بحقك ، يا . . . رافعةَ العلم ؟ ! ! -

* * *

عادت نوران إلى بيتها ، ظهراً ، دامعةَ العينين : أية جريمة اقترفت حتى تنال هذه الإهانات كلَّها ؟ إن موجِّهة صفِّها ، حتى الآنسة هدى الطيِّبة المحبة ، لم تستطع أن تَدْفع عنها بكلمة واحدة : ذلك أن الهجوم كان مُبَيَّتًا ، مركَّزاً ، يَفْلُج ! ربَّاه ، ماذا تفعل ؟ أين أبوها تقصّ عليه هذه الظُّلامة الجديدة ؟

واحتدَّت أمها ، وهي تحكي لها كيف أخذتها الآنسة وسيلة ، من اعلى كمِّها ، بإصبعيها :

ـ لا تقولي : الآنسة وسيلة . . . إنها « وسيلة إلى الشرّ » ! عودي إلى مدرستك ، واعرضي الحكاية على أبيك ، مساء ، فنسمع رأيه .

وعادت نوران إلى المدرسة ، حضر جسمُها والعقل غاب . متى يئين موعد الانصراف لترى أباها ، وتحكي له ، وتبكي بين يديه ؟

سألتها صويحباتُها عن دواعي ثورة الآنسة وسيلة في غرفة الموجِّهات ؟ فحدثتهن بما كان . . . فأجمعن على أنها مُبْغِضة لها بغضًا موصولا وغير مُسْتَتِر . . . وتساءلن عن السبب ؟

وما هو إلا أن أقبلت عليها بنات من صفّ آخر من صفوف المدرسة ، وساءَلْنَها ــ الأخريات ــ عما أتت في رحلة أمس ، من

فعل إدّ ؟

عجبت نوران أبلغ العجب ، واستفصحتهن واجفةَ القلب :

ــ وماذا سمعتنّ من فعلي الذي أتيت ؟

ـ جئنا نسألك . دخلت موجهتنا، الآنسة وسيلة ، قاعة الصفّ ، قبل دقائق . كانت إحدى البنات قد ضُبِطَت ، فى امتحان الصباح ، مُتَلَبِّسَةً بالسرقة من دفتر فى دُرْجها . ونُقِل أمرها إلى الإدارة ، فجاءتنا الموجهة الآن تعلن : «ماشاء الله ! ما شاء الله ! بناتنا ، هذه الأيام ، يفعلن الأعاجيب : إحداهن تُضْبَط ، اليوم ، وهى تغشّ فى امتحان ! ويوم أمس فعلت رافعةُ العلم ، نوران ، فى الرحلة إلى بُصْرى الشام ، ما فعلت ! » . . . فأى فعل ارتكبت ، فى الرحلة ، يا نوران ؟

لم يبق لنوران إلا أن تفقد عقلها : أهى حملةُ تشهير تشنّها عليها هذه «المربيّة» الحقود ؟ آه ، تشدها من كمّها بإصبعيها ، ثم تُشَهِّر بها فى الصفوف ؟ ! وليتها أفصحتْ ، فى تشهيرها ، عن حقيقة ما «فعلت» فى مدرّج بُصْرى ، حتى لا تُطلِق للخواطر أعنّة الخيال ! ! أية «مربيّة» ، هذه «الوسيلة» البارعة إلى الشرّ والأذى والإيلام ؟ أى قَدَرٍ رماها بين يدى هذه المعذِّبة الظالمة !

وبكت فى البيت ، أمام أبيها . . . وأهرقتْ غزير الدموع .

ـ لا تبكى ! (انتهرها أبوها فى شدّة) لا أريد لعينيك أن تدمعا بإزاء موقف كهذا . ولكنى أريد لعقلك ، الذى ربّيتُ ، أن يعمل : ما كان للدنيا أن تخلو . يوماً من الحاقدين والأشرار والظّلام . وإلا كانت الفردوسَ الموعود . إن فى الدنيا ظلماً ، بقدَرِ ما فيها من العدل والإنصاف ، يا ابنتى .

كفكفت نوران دمعها :
ـــ أريدك ، يا أبتِ ، أن تذهب معى إلى المدرسة .
ـــ لن أذهب . . . لا ، ولن أتدخَّل !
تطلّعت نوران إلى أبيها عاجبة .
ـــ لقد علَّمتك كيف تتصرفين فى حال الصَّفْو وفى حال الكَدَر
جميعاً : هيَّا أجيبينى : ما ينبغى أن تفعلى ، غداً ، يا نوران ؟
فكَّرت :
ـــ سأشكو .
ـــ ولمن الشكوى ؟
ـــ لمديرة المدرسة .
ـــ وماذا تقولين للمديرة .
ـــ أحكى لها كل ما كان من الآنسة وسيلة نحوى : من البداية ، حتى تشهيرها بى ، فى أحد الصفوف ، مساء اليوم .
ـــ ودون أن تعرِّضى بالموجِّهة التى قست عليك ، أى تعريض . قصِّى عليها الحقيقة بتجرُّد مطلق . ثم دعى لها ، هى الإنسان المُنْصِف ، أن تحكم بما يوحيه لها ضميرها . . . وتعالى فأخبرينى .

* * *

ـــ . . . أجل . تلك هى الحقيقة كاملة ، ياآنسة خانم . أمسكت بى ، هكذا ، وشدَّتنى إلى داخل الغرفة ، على الرغم من أنى مستجيبة لندائها من تلقاء نفسى ! اعترفتُ لها بأنى رقصتُ مع من رقصتْ من زميلاتى ، فوصمتنى بالوقاحة والمشاكسة ! وفى المساء أعلنت فى أحد صفوف المدرسة ، أن رافعة العلم ، نوران ، قد فعلت ، فى الرحلة إلى بُصْرى

الشام ، ما فعلت ، حتى جاءت البنات يسألننى !

قالت المديرة ، وهى ما تزال مقطّبة الجبين :

— ألا تعتقدين أنك أخطأت فيما سلكت فى الرحلة ؟

أجابت نوران :

— عرفتُ ، بعد ، أنى أخطأت ، وكل منّا معرّضة للخطأ ؛ فأنا بحاجة إلى إرشاد . من موجّهة صفّى : وأما الإهانة ، وأما التشهير ، من موجّهة أخرى ، فهو . . . إنه . . .

وأمسكت .

حدّقت فى المديرة : إنها تمعن تفكيراً . هل لا مستْ قناعتَها ؟ لتمضِ فى شكايتها :

— إن حظّى ، مع الآنسة وسيلة ، كان ، من البداية ، غير موفّق ! من يوم أن وقعت عينُها علىّ ، فى مطلع العام ، نادتنى وأنا فى الباحة « أنت ، أنت ! تعالى هنا ! » ، فلما جئتُها قالت لى : « لماذا تُكَحّلين عينيك ، أيتها الطالبة النجيبة ؟ ! » ، قلت لها : « أنا لا أُكحّل عينىّ ! » ، ولكنها تابعت تزجرنى : « قولى لماذا تكحّلين عينيك ! أنت تلميذة ، ها ؟ ! » ، حلفتُ لها : « آنسة ، والله ، أنا لم أكحّل عينىّ ! » ، انتهرتنى : « لا تكذبى ! يعنى إذا حلفت تظنّين أصدّقك ؟ إذا رأيت عينيك ، مرة ثانية مكحّلتين ، فسوف أعاقبك ! يا الله ، امشى من قدّامى ! » . . .

لمحت نوران بسمة على شفتى المديرة ، سُرعان ما غاضت :

– حسن : عليك أن تعتذري إلى الآنسة وسيلة !

تساءلت نوران :

– أعتذر إلى الآنسة وسيلة ؟

أكدت المديرة ، وقد عاد إليها قطوبها :

– اعتذري إليها أولا . . . ودعي لي بقية الأمر :

انعطفت نوران بأدب ، وتراجعت إلى الوراء خطوة ، وهي تقول باشة الوجه :

– أفعل ما تأمرني به الآنسة المديرة :

ورأت المحيا العابس يهش ويتبسم . وقبل أن تبارح الغرفة ، كانت يد المديرة تتلمس موضع زر الجرس في الجدار وراءها .

والتقت ، وهي في الباب ، بالآذنة ، التي أسرعت تستجيب لنداء الجرس .

ثم ترامى إلى سمعها ، قبل أن تبتعد عن الباب صوت المديرة وهي تقول في لهجة لا تخلو من حدة :

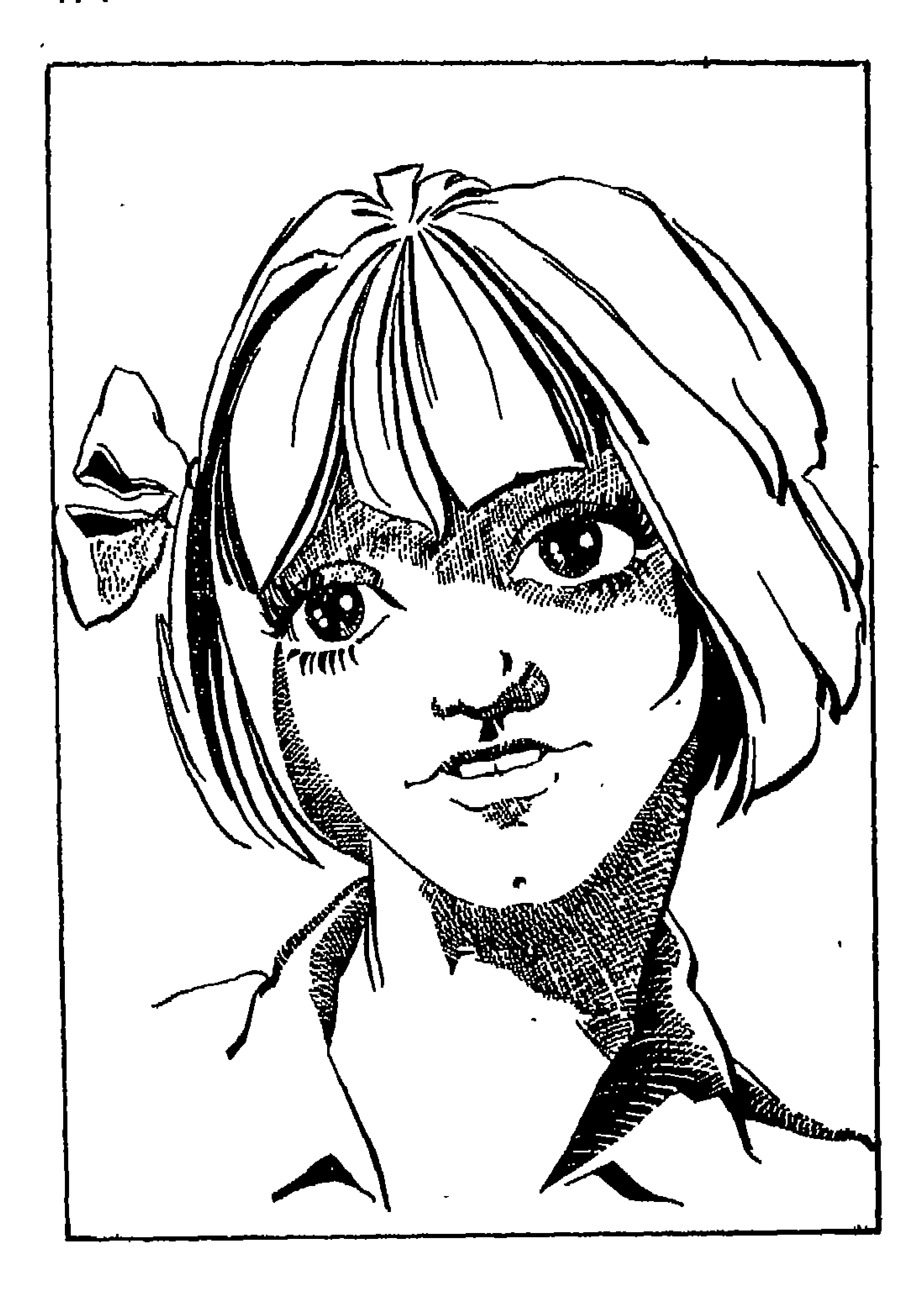
– نادي لي الآنسة وسيلة :

فكرت نوران في حبور : إلى أي حد وُفِّقْتُ في عرض مسألتي على المديرة ؟ لقد كانت تُداري بسمة همت ، مرة ومرة ، بأن تَطفِر إلى شفتيها . . . أو هذا ما خيل إلي !

ولكن . . . عليها ، أولاً ، أن تقدم اعتذارها :

* * *

في الفرصة التالية ، سعت نوران إلى غرفة الموجهات : تسمرت ،



لحظةً ، وراء الباب متهيبّة . ثم قرعت بإصبعها زجاج الباب ، ودخلت . أدارت لحاظَها فى أرجاء الغرفة ، فرأت الآنسة وسيلة والآنسة هدى ، وأخريات . ولكنها أحسّت بجوٍّ من الوجوم يَرين على الغرفة . وكانت الآنسة وسيلة مصفَّرة الوجه .

اقتربت منها بأدب . وبصوتٍ خفيض ، وعلى مسمع من الآنسة هدى قالت :

ــ أعتذر عمّا بدر منى فى الرحلة ، يا وسيلة خانم !

زمّت الموجِّهة شفتيها، وكأنها خائفة أن يُفْلِت منهما ما لا يُشتَهى وصَرَفَت بأسنانها من غيظ كظيم . واضطرب صدرها يعلو ويهبط . . ثم لم تلبث حتى انفلت من فمها صراخُ مَنْ فقد السيطرة على زمام نفسه :

ــ أغربى عن وجهى ! أنتِ ، أنت ! لا أريد أن أراك ! لا أريد أن . . .

متراجعةً إلى الوراء ، تتلمّس بكلتا يديها كرسيًّا ، ورأسها يتلوّى ذُعِرَتْ نوران ، وآدها أن ترى إحدى مربيات المدرسة تتألم أمامها وتساءلت : أأكون أنا السبب فى هذا الذى تشهده عينى ؟

هُرِع إلى الموّجهة بعضهنّ . وأسرعت الآنسة هدى بكأس ماء دلقتها فى كفّها ، ومرّت بها على الوجه الذى ازداد شحوبًا .

وقد سألت نوران موّجهتها ، فيما بعد :

ــ هل ترانى ارتكبت حماقة باعتذارى ، وأنا لا أدرى ؟ !

أجابت الآنسة هدى :

ـ لا ، أنت لم تخطئى فى تصرفاتك قطّ ، يانوران ولكن . . . ماذا أقول ؟ (بدت لها الموجّهة الطيبة وكأنها تبحث عن العبارة المناسبة) إن كياستك . . . إن صَفْحَك . . . إن أسلوبك فى الاعتذار . . . وأشياء أخرى ، كانت كلها فوق احتمال زميلتنا ، يا نوران ! !

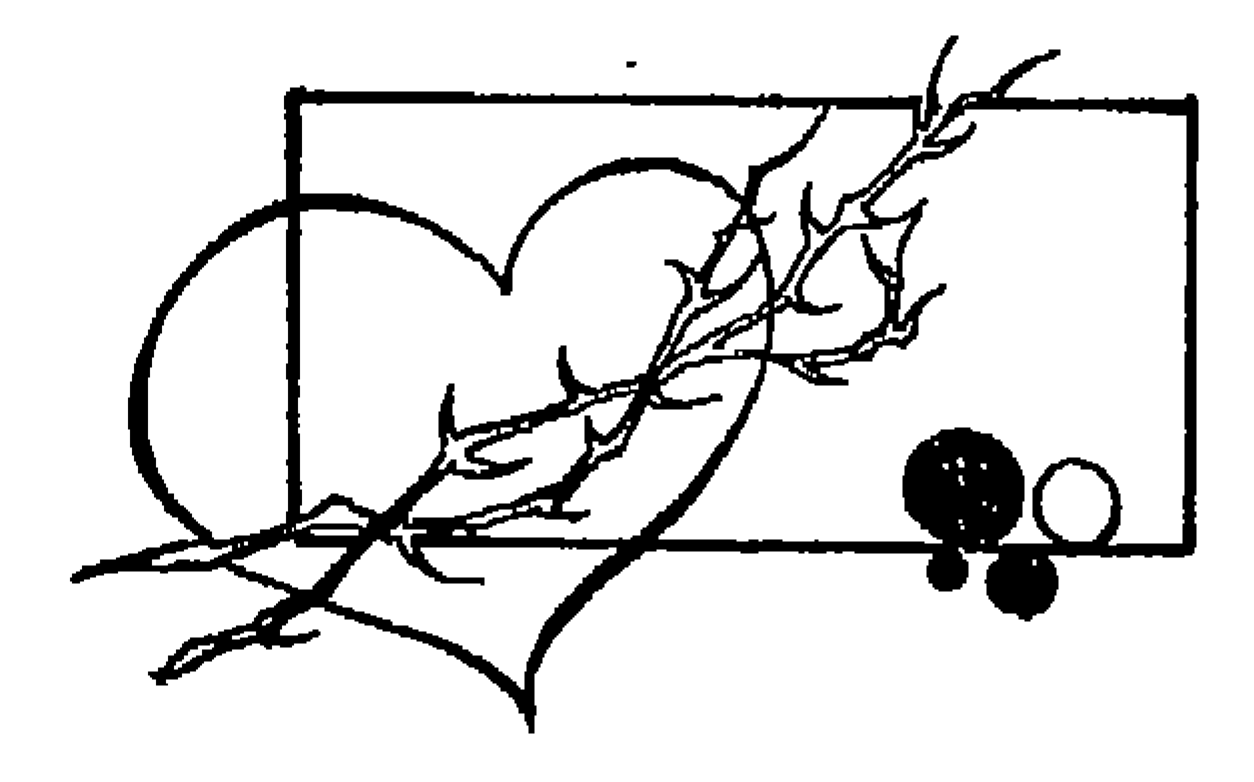
فكّرت نوران بهذا القول طويلاً ، وتساءلت : هل صمودى أمام عدوانها هو ما كان فوق احتمالها ؟ أم أن عداءها لى ، الموصول السافر ، هو الذى أولى به أن يكون فوق احتمالى ؟ !

وقد أعلنت إحساسها ذاك أمام أبيها ، مساءً ، وأضافت :

ـ أريد أن أتبيّن وجه الحقيقة ، يا أبت !

ولم يفصح أبوها . ولكنه أحدّ النظر فى عينيها السوداوين ، وبسمةٌ ذاتُ مغزى ترتسم على شفتيه .

صبية عاقلة جداً



أفلحتُ – حتى اليوم – فى أن أنتزع إعجاب اثنتى عشرة فتاة ، و « ل ٢ » هى الثالثة عشرة ، وأنا ، بعدُ ، فتى فى آخر مرحلة دراسته الإعدادية ! أسجّل ذلك بنفسى بافتخار ، وأنا أزهو على أقرانى فى كسب ودادهنّ .

وليس يقتصر « نشاطى » على محيط القريبات ومعارف الأهل . ولكنى أتصدّى لكل غادة صغيرة تستهوينى فى رواحها إلى المدرسة ، أو فى عبورها الشارع الذى أسكنه .

بات الأمر عندى هواية ، كهواية بعضهم جمع طوابع البريد . وإنى لأدوّن ، فى دفتر أحفظه ، أسماءهنّ . . . وإذا توخّيت الدقة قلت : رموزاً تدلّ على أسمائهنّ ، وذلك حفاظاً على « سرية العمل » واتّقاء أن تفْسد الأمور إذا ما وقعت « الوثائق » (أعنى : رسائلهنّ ورسائلى) فى يد أمى !

ولكنى ، منذ أيام ، وأنا أسائل نفسى فى حيرة : هل لى أن أسلك اسم الفتاة « ل ٢ » فى دفترى ؟ !

إن من عادتى ، إذ أتصدى لهنّ ، أن أبدأ مناوشتى بِرِنْوَة من عينى ! وأتطلع ، فى المرة الثانية ، وأنا أدفع من صدرى آهة معذبة ! ! حتى إذا استلفتُّ نظرها ، دنوت منها ، وهمست فى خجل بِتُّ أملك القدرة على اصطناعه : . هل تسمح الآنسة بكلمتين ؟ ؛ وقد أضيف : « إنى ، منذ ليال ، لم أعرف طعم النوم ! » . وغالباً ما تضطرب الفتاة

الصغيرة لدى سماعها ذلك ، فتهرع إلى أمها ، لا لتشكو لها أمرها ، ولكن لتستجمع فى أحضانها شجاعتها ، استعداداً لأن تتلقى منى البوح فى الغد التالى !!

إلا أن « ل٢ » ، هذه الصبية التى طالت قامتها — فى هذا الموسم — أكثر من لداتها . . . لم تضطرب ، إذ تصديت لها فى الساحة تحت ، ولم تجزع ؛ بل التفتت إلىّ قائلة بثبات :

— إذا كنت تشكو الأرق ، فخذ حبّة منوّم !

وقد كنت جديراً بأن أحسن الظنّ — لو أنها ابتسمت مع هذا الجواب الغريب ! فأقنع نفسى بأنها ترمى إلى مداعبتى ! ولكنها قالت ما قالت فى لهجة « حيادية » فكيف يحق لى أن أدون اسمها فى دفترى ؟ !

أقول : إذا كان من دأبى أن أحقق نجاحاً فى انتزاعى إعجابهنّ ، فأبثهن هيامى فى رسائل وفى لقاءات أسترقها وإياهن فى الشوارع المجاورة لمنازلنا ، أو أدعوهنّ لتناول طبق من « الكاتو » ، أو أهديهن شرائط من حرير . . . . إلا أن الأمر ليس سهلا هيناً على الدوام ؛ إن علىّ أن أعترف بأن منهن من استعصين على براعتى ، فلقيت من أجلهن المتاعب : بعضهن شتمننى ! وبصقتْ فتاة ، مرة ، فى وجهى ! وبلغ الغضب بإحداهن حد أن أهوت بكفها على صفحة خدى فى صفعة رأيتها أحلى مذاقاً من العسل ! ولن أنسى « أباً » عرك أذنى ، وتوعدنى بما هو أدهى إذا ما عدت للتعرض لابنته ! وكيف يفوتنى أن أذكر معركة خضتها مع « أخ » كان أعلى منى قامة وأشدّ ضراوة ، خرجت منها مدمى الوجه ممزق

الرداء ! . . . إن ذلك كله لا يخجلنى أبداً ! ولكن ما حيرنى حقًّا ، هو لقائى – الساعة – بأبى « ل ٢ » ، ذلك الكهل المهيب ؛ لقاء تمنيتُ معه لو يصفعنى أو ينهال على ضرباً ، كى يمنحنى مسوغاً للهرب . . . ولكنه كلّمنى وحسب ، وردّ إلىّ رسائلى !!

فأية أسرة « مدهشة » هى أسرة « ل ٢ » ، هذه الصبية الثابتة الجنان ؟!

* * *

كثيراً ما بصرت بها ، وأنا متخذ موقفى فى مدخل الشارع بجوار بيتنا ، فى مرورها من أمامى إلى حيث منزل أهلها فى منتصف الشارع. إنها ذات شعر كموج الليل ، وعينين مغرقتين بالسواد . لم تكن تسترعى اهتمامى حتى الصيف الذى مضى ؛ ولكنى رأيتها ، فجأة ، تشبّ وتطول ، حتى لقد فاقت أترابها ، وحاذتنى طولا ، مع أنى أكبرها – كما أقدّر – بعامين أو نحو ذلك .

كانت تدخل الحارة رزينة وديعة ، وهى تحمل حقيبتها المدرسية ، وحيناً – فى الليل بخاصة – تحمل آلة « الكمان » فى صندوقها الأسود ! لقد فطنت ، منذ البداية ، إلى أن هذه الصبية البارعة الجمال سيكون لها شأن يذكر . إنها من طراز من البنات مختلف . أفلا ينبغى أن أضمّ اسمها إلى أسماء « رفيقاتها » فى دفترى ؟ !

أعرف أن اسمها . لينا » . وأذكر أنى رجعت ، مرة ، إلى . « القاموس » لأتعرف على معنى هذا الاسم الجميل الذى يشيع بين بنات اليوم . . . فإذا هو

إليِّن من النخل ! وإنها ، والله ، لطرية العود، هذه الـ « لينا » . ومشوقة
ك . . . النخيل !

رحت ألاحقها برنواتى ، حتى ظفرت بانتباهها . فلما التفتت إلىّ
تصنعت اضطراباً ، وأغضيت ، واحمارّ وجهى ! (إن لى قدرة على بث
الدم فى أرجاء وجهى ، لحظة أريد !) . . ثم أصبحتْ ، من بعدُ ،
هى التى ترسل نظرها إلىّ حيث أقف فى فم الحارة . وزفرتُ ، وأطلقت
آهاتى الوالهة . ودنوت منها :

— هل تسمح الآنسة بكلمتين ؟

وما أسرع ما أجابتنى :

— نعم ؟

وسرت بجوارها :

إنى . . . — إنى ، منذ ليال ، لم أعرف طعم النوم !

وندّ عنها سؤال لا يخلو من استعجاب ، فيما هى تتابع سيرها لا تلوى:

لم تعرف طعم النوم ؟ !

وتسمَّرت فى موضعى : لئن كنت قد وفقت إلى استلفاتها على نحو
يرضينى ، إلا أنها — ها هى ذى — لا تفسح لى مجالاً لقول ! حسن ،
فإن فى وسعى أن آسرها « بالكلمة المكتوبة » . . .

« لينا » !

وفتحت الدفتر . الرمز « ل » .

ونظرت : إن الفتاة رقم « ٦١ » كان اسمها « لمياء » وكنت أخاطبها ،

قبل أن نفترق بخصام، بـ « ل » مجرّدة . فـ « ليكا » إذن : « ل٢ » !

أمسكت بالقلم :

عزيزتى « ل٢» .

وفكرت : لسوف تسألنى يوماً : « لم تخاطبنى بـ « ل٢» ، يا حبيبى فؤاد ؟! والجواب عندى معد أحسن الإعداد : « لأن ما عندى لك من الحب ، يعادل مثلى ما عند أى شاب لفتاته » ! ولسوف تطروب ، وهى تغضى حياء ! شئون أعرفها !

عزيزتى « ل ٢» .

أعطر تحية من محبّ قد رميت فؤاده بسهم الحب القاتل وأنت لا تدرين .

لقد تغير حالى منذ وقعت عينى عليك فى الصيف الماضى ، بعد أن أصبحت صبية تلفتين الأنظار يا حياتى .

والواقع أن الأساتذة فى المدرسة قد لاحظوا شرودى عن الدروس . ولاحظ رفاقى أنى لا أشاركهم لهوهم وأفراحهم ، فأخذوا يسرون عنى مع أنهم لا يعرفون السبب . وأمى تسألنى : لماذا تطيل التفكير يا بنى ؟ وأنا أتهرب من الإجابة ، مع أن أمى سيدة شديدة حتى على زوجها !

ولكن السبب هو أنت أيتها الحبيبة المقدسة . فساعدينى أرجوك .

أنا منذ الصيف ، وحتى الآن ، وإلى آخر حياتى ، يا حياتى ، أحبك ! وسأظل وفياً لك . تأكدى من ذلك. لأنى لم أر ولن أرى ألطف منك بين البنات ولا أحلى من قامتك ووجهك . أنا شاب أشقر ذو عينين رماديتين صافيتين ، وأنت حنطية اللون ذات عينين سوداوين ،

وكل منا يميل إلى ضده .

فهل عرفت من أنا ؟

أنا الذى أقف ساعات طويلة أما بيتنا منتظراً مرورك بفارغ الصبر لأكحّل عينى بمرآك .

أعبدك يا حياتى . قبلة على الورق .

كتبت « مسودة » الرسالة فى البيت . وفى المدرسة « بيضتها » . وأسرعت فى انصرافى إلى مدخل الشارع أترقبها .

وهمست فى أذنها قبل أن أقصر خطوى :

— عندى لك رسالة . يمكنك أن تأخذيها ، بعد لحظة ، من صندوق بريدكم !

ودلفت فى أعقابها إلى المبنى ، لأسقط الرسالة فى الصندوق .

ثم انطلقت وأنا أتنفس الصعداء .

* * *

ولما كان من خطتى ألا أتوانى ، فقد أكببت فى ليلتى على تسطير رسالة أخرى :

حبيبتى « ل٢ » :

هذه ثانى رسالة أكتبها إليك بعد الأولى التى كتبتها أمس الاثنين والحقيقة أنى أردت أن أصبر يومين أو ثلاثة ، ولكنى لم أستطع .

هل أعود لأؤكد لك أنى شارد الذهن بسببك؟ ودليلى أنى أسهر وأنا أفكر فيك . وأمى ما تزال تسألنى : لماذا تحملق فى الفضاء ؟ وأنا أكتم

عنهم. والحقيقة أنى لا أنام أيضاً. وعندما أفتح الكتاب لأستذكر دروس الكفاءة ، فإنى لا أرى أما . . عيني كلمات ، بل أتمثل طلعتك الحلوة فأقول : سبحان مقرب القلوب لبعضها !

معبودتى :

لا تستغربى إذا خاطبتك بهذه الصراحة : فإن تدفق الحب يهدم السدود ويجعل الجبال العظيمة تخر وتنهار .

اكتبى إلى رسالة تبل جوانحى اكتبى أى شىء يخطر على بالك. كونى شجاعة . هل تخافين من أبيك ؟ أنا لا أخاف منه . ولا بأس فى أن ترفقيها بصورة لك فى وضع جميل ، كذكرى أحملها معى أنىّ ذهبت ، لأنظر إليها وأنت غائبة عن ناظرى فأراك ماثلة أما . . عيني فلا أشعر بالوحدة :

على كل حال سأنتظرك فى الساحة القريبة أما.. المكتبة فى تمام الثانية عشرة عائدة إلى البيت .

أراك أحياناً تحملين صندوقاً أسود . فهل فيه « كمان » وهل تتعلمين العزف عليه ؟ وهل أنت شاطرة فى هذه الأمور ؟

وكيفية تسلمى رسائلك فإنى سأكون اليوم أما.: بيتنا من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة . تسلمينى إياها بيدى أو تلقين بها خلف إحدى السيارات الواقفة وأنا ألتقطها .

ارحمينى يا حياتى . وخذى بيدى .

ولبثت واقفاً أما .. بيتنا إلى ما بعد السادسة مساء ، وعيناى لا تفارقان مدخل مبناها ، أملا فى أن ألمحها خارجة وفى يدها رسالة ترغب فى أن تلقى بها خلف

إحدى السيارات المنتظمة أمام رصيف بيتنا ، دون جدوى !

حدثت النفس : إنه الخجل والتردد ! ولكنى لم أيأس من أن ألتقى بها فى الموعد الذى ضربته لها فى الساحة القريبة .

وهناك ، لاحت لى ، عن بعد ، وهى تقترب نحوى : كانت تطرق برأسها إلى الأرض تارة ، وترسل نظرها إلى بعيد تارة أخرى ، وكأنها شاردة الذهن فى أمر ما . وأى شاغل غير رسالتى اللتين سهرت ليلتين فى تنميق كلماتهما الدافئة المعسولة !

وإذ مرت من أمامى ، وأنا متسمر على الرصيف أحس ارتعاشاً ، وأتتنى الجرأة فبادرتها :

ــ مرحباً ، لينا !

رفعت ناظريها إلىّ ، وكأنها فوجئت بى :

ــ نعم ؟

ــ . . . .

ــ ماذا تريد ؟

لم تكن لهجتها رقيقة ، ولا كانت جافية !

ــ أريد أن أحدثك فى أمر جوهرى ! هل تسمحين ؟

هشّت لى :

ــ تفضل .

ــ إنى . . . منذ رأتك عينى . . . وأنا لا أنام الليل !

بدا لى أنها ابتسمت ، بل لقد بدا أنها قطّبت الجبين ! وبلهجة

حيادية جداً أعلنت :

ــ إذا كنت تشكو الأرق ، فخذ حبة منوِّم !

يا لتعاستى ! لقد فهمتنى فهماً خاطئاً . كم أنا غبى ! على أن أصرح . ولكنى أراها تخطو إلى أمام ، تريد أن تمضى .

ــ هل تلقيت رسالتى ؟

أجابتنى وكأنى بها تُخفى بين شفتيها بسمة صغيرة حلوة :

ــ نعم !

ولكن خاب ما توقعت من أن تحدثنى عنهما . أن تسألنى ، مثلا ، لماذا أخاطبها بـ « ل ٢ » !

ــ ما رأيك فيهما ؟

التفتت تقول :

ــ إن فيهما شيئاً يدعو إلى الرد !

يا لسعادتى ! لقد أثمرت رسائلى . ولكنها لم تسألنى لماذا . . .

ــ هل حزرت لم أخاطبك بـ « ل ٢ » ؟

أجابت وهى تتابع سيرها :

ــ لأنك . . . مغرم بالرموز الجبرية !

بدا لى ، مرة أخرى ، أنها تفهمنى خطأ !

ــ بل . . . لأن عاطفتى نحوك قوية ، ياليندا . . . إنها تعادل ضعف ما يمكن أن يحسه شاب نحو فتاته من عاطفة الحب !

ويلفنى صوتها المتسائل وهى تمضى :

ـ ولكن . . . كيف عرفت ذلك ؟ كيف ؟ !

خيل إلى أن سخرية ما كانت ترشح من قولها الأخير !

* * *

حبيبتى الغالية « ل٢ » .

كانت فرحتى باللقاء عظيمة جداً . إن الحوار الذى جرى بينى وبينك سيظل محفوراً فى صدرى طول حياتى .

ولكن لاحظت أنك لم تفهمينى بالنسبة لبعض الأمور منها : (حبة المنوم) !

هل كنت خجلة حتى إنك لم تنتبهى لكلامى ؟ أنا لا أنام الليل منذ وقعت عينى عليك . هذا من شدة الحب يالينا . ولكنى لا أريد أن أهرب من عدم النوم ومن الأرق ، فإنه محبب إلى نفسى ما دمت أنت سببه .

مخاطبتى لك بـ « ل٢ » : ثق أنك أملى ومعبودتى وأن حبى لك يجل عن الوصف . قلت لك إنه يعادل ضعف ما يضمره شاب لفتاته من الحب . والحقيقة أنه يعادل ثلاثة أمثال أو عشرة بل قولى مائة مثل يا ملهمتى . . . صدقينى .

علمت أن عندك يوم الجمعة بعد غد مباراة فى الملعب فما رأيك فى أن أرافقك فى الذهاب والإياب ؟ سأكون فى انتظارك فى الساحة .. أما .. المكتبة . فإذا كنت موافقة فانظرى إلى ساعتك لحظة تريننى على الرصيف ، فأفهم أنك موافقة فأتبعك .

لا تخيبى أملى فيك ، يالينا الحبيبة . تشجعى . هل تخافين من أحد ؟

أنا لاأخاف حتى ولو علمت أمى . كونى شجاعة : فالحب الوفى يحتاج إلى الشجاعة كما يحتاج إليها الجندى فى الحرب ، وسلاحنا نحن هو الحب ، وهو أمضى سلاح . لا معنى للحياة مع الخوف .

وبالمناسبة : إن عيد ميلادى هو يوم الأحد القادم أى أول الشهر . أريد أن أصحبك إلى شارع « . . » لنتحدث ونأكل الكاتو فى محل « . . . »

ما زلت أنتظر منك الرسالة التى وعدتنى بها . وكما أخبرتك فى رسالتى الأخيرة سأكون أما.. فراغ بيتنا مساء اليوم من الساعة ٥ — ٦ . تلقين بالرسالة خلف إحدى السيارات وأنا ألتقطها .

افهمينى جيداً : إنى أحبك ولو لم تجيبى . وحبى لك لا يمكن أن يصيبه أحد بأذى ، حتى ولو علم والدك وأمى .

* * *

ارحمينى يا حياتى :

وقد « رحمتنى » لينا .

وهى لم تلق برسالتها خلف إحدى السيارات الواقفة أمام رصيف بيتنا ، بل سلمتنيها بيدها ، إذ اعترضتها وهى فى الساحة عائدة إلى بيتها ، ولم تقل لى فى ذلك شيئاً غير :

— اقرأها جيداً ! !

هتفت فرحاً :

— لسوف أستظهرها .. كما استظهرت « سئمت تكاليف الحياة ومن يعش » .

جارنا السيد فؤاد .

الحب الذى تتحدث عنه يثير استغرابى . فكيف يمكن لإنسان أن يحب هكذا ؟

رأيتك تتلعثم حين تكلمنى . هل فى لسانك عىّ ؟

لماذا تتلهى عن دراستك وأنت فى صف الكفاءة ؟ فكيف يمكنك أن تقدم للوطن نفعاً بدون علم ؟

إذا كنت تشرد ولا تنفعك الحبوب ، فأنصحك بعرض نفسك على طبيب !

بخصوص الكاتو : فى بيتنا كاتو كثير .

وأما أن أعطيك صورتى ، فأنا لا أوافق على ذلك . ولماذا أعطيك صورتى ؟

لاحظنا يا سيد فؤاد خطأ إملائياً يتكرر فى كتاباتك : أنت تأكل الميم دائماً من آخر كلمة «أمام» . مثلا تقول : « أما عينى »، « أما بيتنا »، «أما المكتبة» ! كيف تنجح فى امتحان شهادة الكفاءة ؟

فكرت فى نزق : و «يا سيد فؤاد» هذه لماذا؟ أبيننا حاجز ؟ تبدو لى معلمة ، ناصحة ! «لاحظنا» بالجمع ! ما معنى هذا ؟ إن هذه الصبية إما أن تكون أعقل ممن هن فى سنها ، أو أنها قاصرة العقل غبية ! ولكن . . . بالمثابرة ، بالترويض أكسبها !

وقبل أن أتفرّغ لتسطير رسالة جديدة ، عدت إلى ما فى صندوقى من صور الرسائل التى بعثت بها إليها : وجدت أنى «آكل» الميم ، فى آخر «أمام» حقّاً !!

* * *

حبيبتى « ل ٢ » .

إن كنت فرحت برسالتك الغالية إلا أن فرحى كان يمكن أن يكون أعظم لو لم تختصرى العبارات فيها . كانت رسالتك أشبه « ببرقية » ! أمردّ ذلك إلى الخجل ، فأنت لا تقدرين أن تفصحى عن حقيقة مشاعرك ؟ أم أنه خوفك من أن يعلم أهلك ؟ لكن الأحباء يا عزيزتى لا يخافون بل يدافعون عن حبهم حتى الموت . وأما أبوك فأعترف لك بأنى لا أرتاح له كلما رأيته مارًّا أمام بيتنا (هل نسيت الميم ؟) أعتقد أنه يفزعك . ثورى على جبروته . أعانك الله على تحمل قسوة الحياة معه .

فما بالك بالله عليك ؟

أطلب منك موعداً نتلاقى فيه يوم عيد ميلادى فلا تجيبين طلبى . ثم تقولين إن فى بيتكم كاتو كتير ! !

أطالبك بصورة لأنظر إليها وأنت غائبة عن عينى فتكتبين : أنا لا أوافق على ذلك ، ولماذا أعطيك صورتى ؟ هأنذا مثلا مستعد لأن أعطيك صورتى . هيا اطلبيها .

أقول لك إنى لا أنام الليل فتنصحيننى بأن آخذ حبّات منوّم ! ثم تكتبين إلى أن أعرض نفسى على طبيب ! وقد نسيت أنك أنت طبيبى .

أود أن أعلمك بأننى إذا تلعثمت فى حديثى معك وإذا أكلت أحرفًا من أواخر الكلمات ، فهذا دليل على أن عقلى لم يعد معى .

إنك زهرة تتفتح للحياة . فإما أن تمنح الناس أريجها ، وإما أن تحجبه عنهم فتلوعهم . ونحن يا لينا إما أن نتساعد فنصبح أحباء بكل معنى

الكلمة ، وإما أن تحرميني من عطفك ومن الأمل الذى أحتاج إليه وتغرسى فى قلبى اليأس القاتل المميت . فهل هذا هو ما يستحقه المحب من محبوبته ؟

عشر رسائل كتبتها يوم أمس . ولكنى مزقتها واحدة بعد أخرى . وعدت اليوم لأكتب لك من جديد هذه الرسالة الطويلة . . . فهلا عطفت علىّ فوصلتنى بلقاء يعيد إلى الثقة بنفسى وبحبى ؟

لقد وضعتك فى ذروة قلبى . ولكنك لم تهتمى بذلك مطلقاً . والدليل هو (عدم الاستجابة — وعدم إعطائى ما طلبته منك . . .) ولعلك تقولين وأنت تقرئين رسالتى هذه : إنها حبر على ورق ! ولكن دمائى ليست بحبر وقلبى ليس بورق .

ليتك تذكرين تلك الأيام (فى الصيف الماضى) عندما كنت أقرع جرس باب بيتكم خلسة . كانت تلك بداية حبى لك ، ولم أجد وسيلة لأجعلك تنشغلين بشىء أنا سببه إلا أن أقرع الباب وأهرب ! أتذكّر كل هذا وأستعرض ماضى قصتى معك . . . وأبكى . ولكن ماذا تفعله الدموع ؟

بالمناسبة : أنا شاطر فى دروسى . وإنى على استعداد لأن أقدم لك كل مساعدة تطلبينها فى مجال العلم والمعرفة وبخاصة (الجبر — الهندسة — الكيمياء) فإما أن ترسلى طلبك برسالة ، وإما أن تسأليني هاتفياً (رقم هاتفنا هو ٨٨٤٤٢٢) وعندما يرفع أحد فى البيت سماعة الهاتف فإن التعريف على شخصك يكون بأن ترددى مطلع أغنية عبد الحليم (نار يا حبيبى نار) .

ملاحظة : سأكون مشغول البال من لحظة وضع هذه الرسالة فى صندوق بريدكم إلى حين تسلمى رداً عليها . أريد الجواب بسرعة . فإما أن تحقق أحلامى وتكملى سرورى ، وإما أن تغرق قلبى بالأحزان !

جف القلم ودموعى لم تجف :

حبيبك إلى الأبد

* * *

طويت الرسالة فى مغلف ، ومضيت

وإذ نزلت إلى الشارع ، أخرجت رسالتها — البرقية ، أمرّ بعينى على أسطرها ، آسفاً لأنى لم أفلح بعد فى كسب ودادها .

ولكنى ، على مقربة من بيتها ، لمحته ! كهل ذو مهابة ، مهابة تبلغ حد الصرامة ! أسرعت أدس الرسالة فى جيبى . إنه على ! أعانها الله وأعانى ! لقد حدثتها عنه فى رسالة اليوم ، بما يليق به ! حمداً لله إنه لم يفاجئنى ، وأنا فى مدخل مبناهم ، أمام صندوق البريد ! ينبغى أن أكون أكثر حذراً !

تحاشيت النظر إليه ! ألم أعترف لها بأنى لا أرتاح إليه إذا ما واجهته فى الشارع أو واجهنى ؟ ولكن — عجباً ! — بدا لى أنه — هو — على العكس : يرتاح للنظر إلىّ ! ها هو ذا يحدّق فىّ ! بل إنى ، فى استراق النظر إليه من جانب عينى ، أراه يتجه نحوى !

إنه يطلبنى !

أشار إلى بيده إشارة أن : أدنُ منى ! ورجعت ، فى الحال ، إلى

نفسى أسائلها عما إذا كان ينبغى أن أستجيب فأدنو ؟ أم يحسن أن أطلق ساقى للريح ؟ فماذا لو فتش جيبونى ، فعثر على رسالة ابنته وعلى آخر ما كتبت إليها ؟ !

انقدت إليه ، وقد طغى على شعور يشبه الخوف . ثم لست أدرى كيف ارتفعت يدى ، بحركة تلقائية ، تؤدى له التحية ، صنيع تلميذ يواجه « أستاذه » !

سألنى :

ــ أنت من يسمى ... « فؤاد » ؟

أجبت بأدب

ــ نعم ، أستاذ !

ــ فى أية مدرسة أنت ؟

ــ فى « الإعدادية الرابعة » ، أستاذ !

هتف كمن وقع على ما يسره :

ــ الإعدادية الرابعة ؟ إن مديرها صديق لى قديم . هل ترغب فى أن أوصيه بك خيراً ؟

أسرع لسانى يعلن :

ــ كلا ، أستاذ !

ثم انعطف يخاطبنى فى لهجة ودودة :

ــ اسمع ، يا فؤاد : إن شرودك وأنت تستذكر دروسك (فكرتُ : كيف تسنى له أن يعرف ؟ !) ... أمر يعز على أفراد أسرتى ، باعتبارك

من جيرتنا ! إننا نقرأ رسائلك أولا بأول ! (يا لله !!) تقرؤها علينا ابنتى لينا ! (يا للخائنة!!) وقد حدثتنا ، أخيراً ، عن تصديك لها فى الساحة تحت ! (إذن فقد كانت تخدعنى !!) لقد وددت أن ألقاك قبل الآن لأنهاك عن ذلك ، وأرد إليك «رسائلك» . دونك إياها ! (كانت فى أحد جيوبه ، فى متناول يده ، فأخذتها!) أعتقد أن ابنتى سلمتك رسالة ، أليس كذلك ، يا فؤاد ؟

فكرت : يا للرجل الا تخفى عليه خافية !

— بلى ، أستاذ !

— يمكنك أن تعيدها إلى ! لعلك استفدت شيئاً من الملاحظات التى عملت أسرتى ، دون علمى ، إلى إملائها على لينا . إذا لم تكن الرسالة معك فهيا اصعد إلى البيت ، وائتنى بها !

بادرت أقول :

— إنها معى !

ودفعتها إليه ، بيد ترتعش .

— حسن ، بوركت من فتى مطيع! أنت بحاجة إلى رعاية ، يا بنى لقد حللنا نفسيتك من خلال رسائلك !

هل أكتفى بالقول : إنى تمنيت لو أن الأرض تنشق تحت قدمى ؟ ! أم أضيف بأنى تمنيت ، أيضاً ، لو يرفع يده ليضربنى ، كى يمنحنى مسوغاً للهرب ؟!! . . .

— لن أخبر أمك ، فأخشى أن تتصرف معك على نحو يتنافى وأصول

التربية الحديثة . ولكنى آمل أن تقلع عما يسىء إلى دراستك ، يا ولدى !
وتركنى مصعوقاً ، ومضى .

* * *

فالأسرة ، كل الأسرة ، كانت تقرأ ، بإمعان ، كل ما أحبِّره من رسائل ! !

يا للشَّرَك الذى وقعت فيه يا لغفلتى ! لكم خدعت !

لقد هتكت أسرارى أمام أهل فتاة ! إنى — وأنا مغلق باب غرفتى على — لأنشق من الغيظ ، من الحزن ، من الألم ، لأن رسائلى العاطفية ، التى عنيت بصياغتها ، كانت مبعث هزءلهم : يحللون نفسيتى ! ! !

ولكن ، أى آب هو هذا الرجل ! إنه ، بعد كل شىء ، دمث واطيف . ياالخجلى لوكنت أسقطت الرسالة فى صندوق بريدهم : فقرءوا ، وتليتْ على الأب تلك العبارات التى أعملت ذهنى فى انتقائها وتنميقها : « ثورى على جبروته » ! إنى لأحسبنى سأتوارى عن ناظريه كلما لمحته فى طريق ! وإذا ما وقعت عينى على ابنته ، وهى تسير على رصيف أسرعت أثب إلى الرصيف الآخر !

يا للجهد الذى ضيعت فى تسطير آخر رسائلى ! أولى بى أن أمزقها إرباً إربا .

مددت يدى إلى جيبى ألتمسها ، لأمر عليها نظراً خاطفاً .

ولكنى . . . لم أعثر عليها !!

بحثت عنها فى جيبى الآخر . . . فوجدت أن رسالتها إلىّ ما تزال

فى جيبى ! وأننى – ياللعجب ! – إنما سلمت الأب رسالتى الرابعة ليس غير !!!
يا للطامة !

إنى لأسمع ، اللحظة ، رنين الهاتف ينبعث من الصالة فيصلنى عبر الباب الموصد . إنه يرنّ فى تواصل ملح ، زادنى توجُّساً !

كف الهاتف عن الرنين .

أمى تتكلم :

– ألو . نعم ؟

صوتها يرتفع :

– من يطلبه ؟

ثم تقترب بخطواتها نحو غرفتى !

فتحت على الباب ، لتخاطبنى بوجه عابس :

– رجل ، لم يفصح عن اسمه ، ينتظرك على الهاتف !

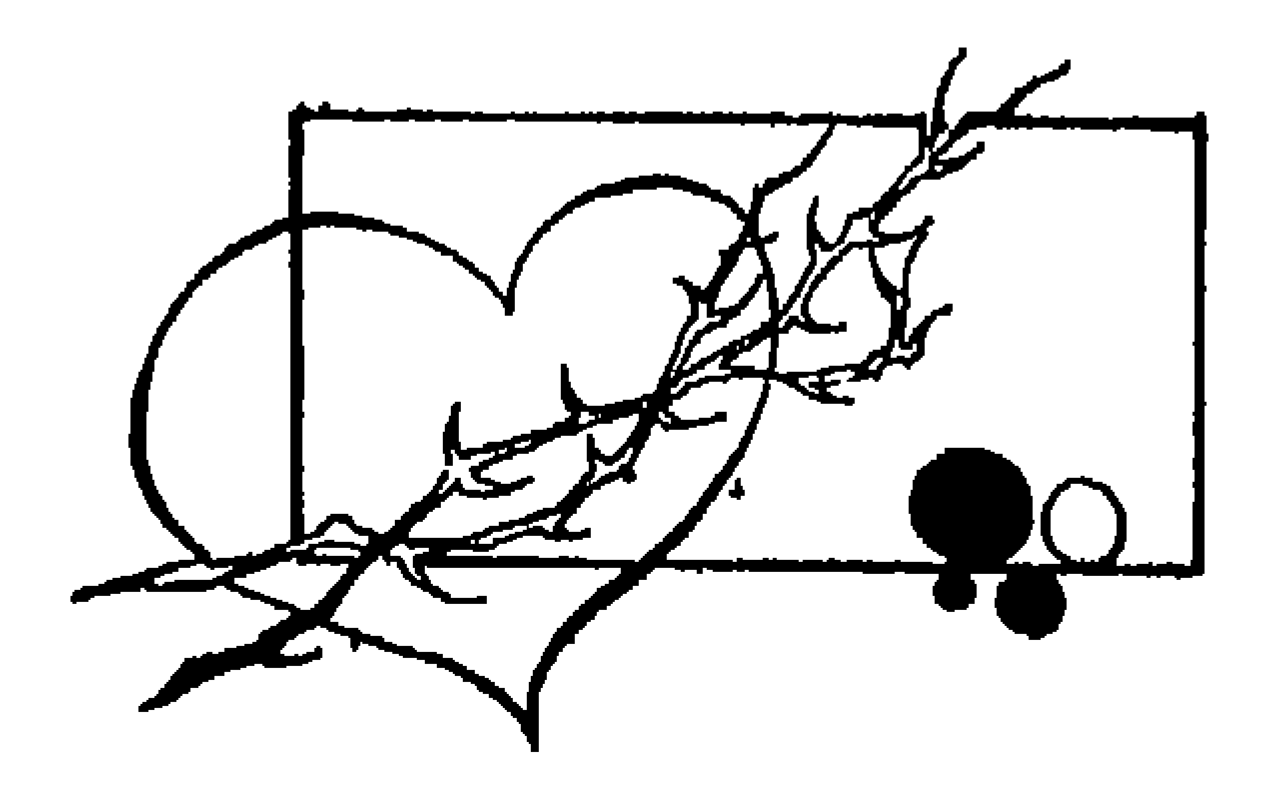
يا إلهى ! إنه هو... جاء يطلبنى ، برقم هاتفنا الذى ذكرت فى رسالتى !

أحس بدوار . أحس أنى أتهاوى .

أمى ما تزال تحدق فىّ بنظرات مرتابة .

أحس بأنى ، هالك ، الساعة ، لا محال . . .

صرخة في عالم غير مألوف



فتحت عينيها . . . وحلقت فى السقف هنيهة كالمدهواة ، قبل أن تدرك أنها فى « المهجع » بين زميلاتها . وهتفت ، بينها وبين نفسها ، فى نشوة :

ــ يا له من منام !

وانقلبت ، وهى فى سريرها ، إلى الجانب الآخر ، صوب النافذة الشرقية ، وقد استشعرت خوفاً حقيقياً : إنه يطاردنى حتى فى الأحلام ! ثم فكرت : أما آن له أن يعلم أنى بنت شريفة ؟! أنا لست كبنات المهجع الآخر ! شريفة ، أنا بنت شريفة ! أولئك هن من يرغبن فى تلك المداعبات التى تؤدى إلى . . . وصعدت من أعماقها تنهدة ، ثم سحبت اللحاف إلى ما فوق رأسها : أقول لهم : . عبدو سلام يطاردنى» وهم لا يصدقون ! لا يصدقون ! لا يصدقون ! . . . اختلط الخوف فى صدرها بالنشوة : طيب ، لن أصده بعد اليوم ، أو أهرب منه . . . ليفعل بى ما يشاء !

أرسلت إليها الشمس أشعتها عبر النافذة . اقتحم نورها الظلمةَ الصغيرة التى اصطنعتها تحت اللحاف . يا له من حلم ! هتفت بينها وبين نفسها ، ثم فكرت : عبدو سلام يُشْبه « تيسير بيك » ! وتساءلت : لماذا يرِد هذا التشابه على خاطرى دائماً ؟ وتملّت النظر من شجرة السرو ، المهتزّة من هواء الربيع ، السابحة فى نور الشمس : يوم جميل ! إنه يوم جميل ! سعيدةٌ هى بوجودها هنا . ليت أيامها فى « المعهد » تطول . تحب عبدو سلام . يلَذُّ لها أن تستعيد فى خاطرها كلمات تيسير بيك . ولكن ، وا أسفاه : يقولون إنهم « سيُخْلُون

سبيلَها » عما قريب ! وما ينفعها أن تتحرَّر ، أن تخرج من هنا ؟ ألكى تعود إلى الخدمة فى بيوت الناس ؟ خير لها أن تبقى فى المعهد . لقد سئمت العمل فى البيوت صانعة ، صانعة ! تكره سيدتها : « أم مروان » ! اضطرب أمرها فى بيتها ، آخر البيوت الذى انتهت منه إلى المخفر ، بسبب السوّار الذى ضاع ! قررت فى تصميم : أنا لست سارقة ، أنا صانعة أخدم ، ولكنى لا أسرق ! وفكرت فى حنق : تبًّا لأبى ! حملها أبوها ، وهى طفلة ، من الضيعة إلى دمشق . نقّلها من بيت إلى بيت . . . أتعس البيوت كان : الأول والأخير . ولكنها — لتقل الحق — سعدت فى بيت سيدتها أم مروان . وتذكرت تيسير بيك ، ابن أخت سيدتها : ما أعظمه ! ما أرقّ كلماته ! ما أعذب نظراته ! آه ، كانت دقيقةٌ واحدة فقط ، ولكن لن تمحوها الأيام من ذاكرتى . كنت ألبس ذلك الفستان الأحمر الذى « دَوَّرَتْه » لى سيدتى من فستان قديم لبنتها « حسناء » . دخلتُ الصالون على تيسير بيك بصينية القهوة . اختلستُ منه نظرة : وجهٌ مورَّد ، وشاربٌ أشقر مزجَّج . كنت أعرف فى سيدتى تباهيها بابن أختها الذى يتلَّقى علمه فى مصر . وها هو ذا أمامى ، يمدُّ يده لتناول الفنجان من الصينية ، الحق ، لقد أَغضيتُ ، ثبّتُّ نظرى فى الصينية ، استحياء . لماذا كان ذلك منك ، ياسُعْدَى ؟ يا سعدى ؟ لقد لمحتُ فى عينيه بريقًا ! كان فيهما شىء . . . كيف أعبّر عنه ؟ تحسَّس ، بعينيه ، صدرى الناهد ، أوه ، أخجلنى ! ثم رفعهما إلى

عينيَّ السوداوين :

— من أين أنت ، ياصبية ؟

وتولَّتْ سيدتى عنى الجواب . لم تدعْنى أتكلم : لسانها الثرثار لا يستريح . ثم أضافت فى شكوى :

— إنها تتعبنى ، يابنَ أختى ! لا تُحْسن العمل ، تكسِّر : بحاجة إلى من يقف فوق رأسها : : :

ما أكذبها ! ! جرَّحنى هذا الادعاء الباطل : لماذا تكذب سيدتى ؟ لماذا تقلِّل من شأنى أمام ابن أختها ؟ ألا يكفى أننى صانعة تخدم فى البيوت ؟

كان قد رشف من فنجانه رشفةً صغيرة : ثم تطلَّع إلىَّ :

— هل أنت التى صنعت القهوة ؟

أسرعت أجيب ، قبل سيدتى :

— نعم !

وجدتُ ، أنا نفسى ، فى صوتى رقَّةً لم آلفها .

— أنت ماهرة فى إعداد القهوة !

لم أسمع مثل هذا الثناء ، عمرى !

تدخَّلت سيدتى :

— إنه : : . البنّ الممتاز !

— ما اسمك ؟

— سعدى :

– حتى اسمك حلو : عربىّ الأرومة !

ما معنى هذه الكلمة : « الأرومة » ؟ ! : : :

أمعنت سعدى النظر فى الشمس تطلّ عليها من خلال شجرة السرو : لماذا لم تَدَعْها سيدتها ، القاسية ، لحظة أخرى ؟ كان ذلك السيد العظيم جديراً بأن يمضى فى مساءلتها والثناء عليها . . . ولكن « رِقّةَ عين » من سيدتها ، حملتها على وضع الصينية على « الإسْكَمْلَة » والإسراع فى مغادرة الصالون . ثم لم تُدْعَ إلى هناك ثانية . وهى ، على كل حال ، انشغلت فى المطبخ بتحسس صدرها – نعم نعم ، لقد أحست فيه ثورةً – وفى تلمّس خدّيها اللذين وجدتهما يتّقدان : وقد استرقت ، من وراء الباب ، نظرات إليه ساعةَ انصرافه : ما أجمل شبابه ! وإذ لمّت الفناجين ، أَهْوَتْ فى المطبخ على فنجانه ، على الثمالة الباقية فى قعره ، تلعقها لعقًا ، قبل أن تدفع به إلى ماء الحنفية : : . لقد وجدت فى ثمالته طعمًا خاصًّا !

* * *

ليست جائعة . إنها فى هذا الصباح لا تحسّ جوعًا . والجرس ما يزال يرنّ ، معلنًا موعد الفَطور . و « ماما زوال » ، هناك وراء البِرْكَة ، تسوقهنّ :

– إلى المطعم ، يابنات : . إلى المطعم .

وظلت هى فى أرض الدار ، فى المقعد المواجه للباب : متى يُطِلّ بوجهه المورد ؟

اقتربت المراقبة منها :

ـ سعدى ! هيا إلى المطعم يا سعدى :

ـ لا أشعر بالجوع يا ماما !

ارتسم الاستغراب على الوجه العطوف :

ـ كيف لا تشعرين بالجوع ؟ هل تشكين شيئًا ياسعدى ؟

كاد لسانها يشكو : إنه يطاردنى ! ما زال يطاردنى ! يطاردنى حتى فى المنام ! قبّلنى من هنا ومن هنا : . عبدو سلام ! !

المراقبة تُوالى سؤالها ، فيما هى تربّت لها رأسها بحنان :

ـ هل أنت منزعجة من شىء ؟ هل ضايقتْك إحداهن ، يا بنيّى ؟

كان استحضارها لصور المنام قد أثار فى صدرها أشواقًا . أخذتها المراقبة من يدها . وهى تحدّث نفسها : كاد يفعل بى أشياء أخرى ، يا ماما ! وعصفت فى صدرها الأشواق مشوبة بالخوف ! ولكنى استغثت إنه يطاردنى . لماذا لا تصدقوننى ؟

وبَغَتَهَا ، إذ غدت فى باب المطعم ، خوفٌ سمّر قدميها ، وأوشك أن يشدّها إلى وراء . لولا أن سمعت ماما نوال تهمس فى أذنها :

ـ مابالك ، ياسعدى ؟

كادت تفصح : هنا هنا ، يا ماما ، أمسك بى عبدو سلام ! كنا وحيدين ، كنت منعطفة عليه أساعده فى مهمته ، فترك كل شىء وهمّ بى . . . يا ماما ، يا ماما !

ثم أطلّت بعينيها على المطعم ، فوجدت البنات كلٌّ فى موضعها وراء موائد الطعام : وفكرت ، وهي تسير إلي أمام : حسَنٌ ، ليس

ثمة ما يخيفني ، الآن !

. التقت عندها نظرات البنات . إنها تقرأ في أعينهن أشياء !

المراقبة أعطت « الإيعاز» بالبدء بالأكل .آه ، أي شهية عندي للأكل ، اليوم ؟ أمسكت بفنجان الشاي يُذكِّرها . . . إنه يذكرها بفنجان القهوة الذي لعقته في مطبخ سيدتها أم مروان . . . وبابن أختها الذي يدرس في مصر . . . وبالبريق في عينيه . . . أوه ، إنه يخجلها ! عبدو سلام . هو الآخر ، تحسَّس بعينيه صدرَها لحظة وقع نظره عليها أول دخولها المعهد ! إنه يُشبِه تيسير بياك ، في الشباب الفاتن والوجه المورد والشارب الرفيع الأشقر ! كلما خطر في أرض الدار رشقها بنظرة تحس لها لذّة جديدة مضاعفة ! إنه ليحدق في عينيها تحديقة تُضْمِر معنى — باتت تفهم هذه الأشياء — بينما يزداد وجهه توردّاً ! أنا جميلة، أنا بنت خمسة عشر ، لم لا يخطبني ؟ سألتْ ، مرةً ، « ماما وداد » ، التي تَمْحَضُها حبًّا خالصًا ، عن عبدو سلام ؟ فعرفت أنه موظف حديث في المعهد . إنه « آذن المعهد » ، يحمل أوراقًا إلى « قصر العدل » ويعود بأوراق . إنه يأتينا كل صباح بالمواد الغذائية من المستودع الكبير في «جناح الذكور» . إنه فتى طيب . وأنا بنت طيبة وحلوة . المراقبات جميعهن : « ماما وداد » و « ماما نوال » و « ماما تيريز » ، يقلن إني بنت « آدميّة » .

مضى عليّ في المعهد أربعون يومًا ولم يشكين مني من شيء ،

وشكين من زميلاتى كثيراً . أنا لم أسرق سوار الذهب من خزانة « ستّى أم مروان » ! لعل مروان ابنها هو الذى سرقه : اتهمونى باطلا وضربونى : قلت لهم : « أنا لست سارقة ماذا أفعل بسوار الذهب؟ » ضربونى ، وطلبوا منى أن أُقِرّ : أين خبّأتُه ! أخذت أستغيث : أين أنت ، يا أبى ؟ لماذا وضعتنى فى هذا البيت ؟ » . كنت أتخيل، وأنا تحت الضرب ، تيسير بيك وحديثَه العطوف : « من أين أنت يا صبية ؟ » ، « هل أنت التى صنعت القهوة ؟ » ، « أنت ماهرة . . . » . . . ليته يرانى وأنا أُضرب . إذن لصدّقنى ومنع الأذى عنى كان تبين الحقيقة فى قولى وأقنعهم ببراءتى من سرقة السوار ! ولكن تيسير بيك لم يكن له أن يأتى ، لأنه عاد من يومه إلى مصر . . . إن أحداً لم يمنع عنى الأذى . . . وهم قد هدّدونى بالحبس ، بأن يُسلّمونى إلى الشرطة للتحقيق معى ! وقد تساءلت : « أيمكن أن تكون الشرطة أقسى من ستّى أم مروان ؟ ! » .

فطنتْ إلى أنها تأكل ، وهى لا تدرى . وتبسمت ، ويدها ترتفع إلى فمها بحبّة زيتون : ههنا آكل بشهية ! ما ألقاه من المراقبات الثلاث اللواتى يتناوبن الإشراف علينا ، وما ألقاه من معلمة الخياطة « ماما فردوس » ، ومن الإخصائية الاجتماعية ، ومن المدير . . . كنت ألقى ضدّه من ستى أم مروان ومن ربّات البيوت السابقات عليها : كلهنّ قاسيات ، أقسى من « الشرطة » ! وتبسمت ثانية ، واللقمة فى فمها : لقد وجدتُ الشرطة رجالاً طيبين . هربتُ إليهم فى ذلك

اليوم . بعثتْ بى ستى إلى البقال لأشترى لها حاجات صغيرة ، وسلَّمتنى ليرة ثمنًا لها . وضعت الليرة فوق جهاز التليفزيون . وانطلقت من البيت أهيم على وجهى فى الطرقات . كانت نزهةً حلوة . سرت فيها طويلاً ، وأنا لا أريد أن أسأل عن مخفر الشرطة . كنت أفكر وأفكر . فكرت بكل شيء وبتيسير بيك : لو يرانى الآن ، لكان له أن يسائلنى ويحدثنى بما يحلو له ، فخالته أم مروان ليست معنا ! وكان لى أن أسأله : ما معنى أن اسمى عربىّ « الأرومة » ؟ الأرومة ، الأرومة . . . قادتنى قدماى إلى مخفر الشرطة . فاهتمُّوا بى ، وأنصتوا إلى قصتى . وجدتهم لطفاء جدًّا . كانوا يُغْدقون علىّ فيضًا من نظراتهم ، ولكن نظرات تيسير بيك كانت أحلى . وقدموا لى غداء : « رغيف فلافل » شهيًّا . ثم « هتفوا » إلى سيدى « أبو مروان » :

— « الصانعة التى تعمل عندكم سعدى ، هى عندنا فى المخفر ، يابيك ! ! » .

ترك سيدى بيته ، وأقبل على عجل :

— ما تفعلين هنا ، يا شقية ؟ !

أطرقت من خوفٍ ، بادئَ الأمر ، ولم أجب .

— ضاعت ! صانعتنا ضلَّت الطريق .

وأخذ يدى . فتمنَّعت .

— ما بالك ياسعدى ؟ حملتنى على أن أترك الغداء وآتى إلى هنا . ستّك أم مروان بالها مشغول عليك .

هنا ذهب الخوف عن فؤادى .

— لا أذهب معه ! ستى أم مروان تتهمنى بسرقة سوار ضيّعَتْه ، وتضربنى . لا أذهب إليها .

سألنى أحدهم :

— وأين تريدين أن تذهبى ياسعدى ؟

— أدخل الحبس . أهون لى !

همّ سيدى بأن يصفعنى :

— أنا دافع « حقّك » لثلاث سنين ! (والتفت إليهم) هذه البنت سرقت سوار زوجتى !

فواتتنى جرأة عظيمة :

— إذن أدخل الحبس . . . لأنى سارقة !

— وقحة ! وقحة ! وقحة !

* * *

اتخذتْ مجلسها فى المقعد المواجه لباب الدار : أما آن له أن يأتى ؟ وتأوّهتْ : ولكنه لم يعد يهتم بى ! وقرّعت نفسها: آه ! أنا ، أنا ، ألم أشكُه إلى « الإدارة » ؟ ! قلت لماما وداد : « عبدو سلام يطاردنى ، يا ماما ! » . واستفسرتنى ، فما أخفيت عنها ؟ أوه ، لماذا كفّ عن الاهتمام بى ؟ كان يحبنى ، نعم ، قرأتُ فى عينيه الحب ! أنا أعرف أنه يريدنى لنفسه ، هذه هى الحقيقة : يريدنى أكثر مما أريده ! ولكنه ، آه منه . . : يخاف !

وتطلعتْ نحو الباب : لماذا كفَّ عن الاهتمام بى ؟ لطالما سألتْ نفسها ، فكانت تجيب : لأنه إن أنشأ بينه وبينى علاقةً فصلوه من عمله ! حدّثوها بأنه على شبابه ، صاحب « عيلة » يعيلها . مات أبوه بالأمس القريب ، مخلّفًا له إخوةً صغاراً وأمه . كان طالب مدرسة فاضطر إلى ترك مدرسته والعمل هنا . يأخذ أوراقًا إلى قصر العدل ، ويأتى بالمئونة اليومية من المستودع . تراه أحيانًا متأبطًا كتابًا . سألته أول مجيئها : « ما هذا الكتاب ؟! . لمحت فى عينيه بريقاً ذكّرها ببريق عينى ابن أخت سيدتها أم مروان . أجابها ، محاذراً أن يسمعه أحد : « كتاب التاريخ لطلاب البكالوريا » . لماذا خفّض صوته ؟ يمتنع عليه أن يخاطب البنات . آه منه : وجدته يعنى بها وحدها ، حين لا يولى غيرها من البنات اهتماماً آه منه ! والبنات يحببنه . فتى وسيم يدخل إلى حيث لا يدخل رجل سواه ، عدا المدير . وجدت عنايته بها فى ازدياد وعندما يكلمها يصطبغ وجهه بحمرة على ما فيه من لون وردى . إنها تتسلل فى غفلة من المراقبة المناوبة ، إلى المطعم وراءه ، فتساعده فى تفريغ المئونة التى يجلبها فى الصوانى والصحون . تكون معهما الطاهية « أم محمود » المرأة السمينة التى لا « ترى » جيداً ! لا تفهم إلا فى السمن واللحم والمرق ! لا ترى عبدو سلام وما يصطبغ به وجهه الوسيم من ألوان ! تتمنى لو تتحسس وجهه ! مرة « مدّت يدها إليه ، تلامس كتفه . نظر هو إلى كتفه ، ليرى ما إذا كان ثمة « شىء » على كتفه . أحبت أن تداعبه ! فلما لم ير شيئاً ، صوّب نظره إليها : كانت تحدّق فيه

بشغف ! الحقيقة ؟ وتبسمت : لقد أحببته ! أحببته ! أحببته ! والبنات عرفن ذلك من الوهلة الأولى ! آه ، لقد اضطرب من تحديقتها فيه . ما أجمل المداعبات وأسرع يدير نظره صوب أم محمود ، ليرى : المرأة تشهد ؟ وأم محمود غارقة فى فحص السمن والرز والشعيرية ! إنه يخاف الإدارة . وضح لها أنه يخاف . وإنها لتحبه، فى خوفه وأمنه ! ووضح للبنات أنها تحبه . ولكن . . واحسرتاه ، لقد كف من يومئذ عن التحدّث إليها ! وكفّ ، آه ، حتى عن النظر إليها ! إنها لتعاونه فى المطعم ، وتبذل فى معاونته جهداً ، فلا يبدى اهتماماً أى اهتمام .ترى ، أى خوف فيه ؟ كل ما باتت تراه فيه سكوت مطبق فى وجه يصطبغ ألواناً . إنها لتكره فيه هذا الصمت ! تمثال جامد ، ذو وجه يتوردا . . . تكرهه ! بات يطاردها ! يطاردها ، على نحو غير مألوف ، فى اليقظة والحلم ! لماذا يداعبها ؟ إنها لاتريده ! إنها بنت شريفة . . . شريفة . . .

— بماذا تفكرين يا سعدى ؟

صحتْ على صوت إحداهن .

— بماذا تفكرين ؟

إنها فاطمة — هى ذى تجلس إلى جوارها — التى قطعت شوارع دمشق متسولة .

— لاأفكر بشىء .

كانت عيناها مشدودتين إلى الباب شدّاً .

— لاتفكرين بشىء ؟! (لمحتْ على شفتى صديقتها الخبيثة بسمة)

عبدو سلام ... هم م م ... تنتظرين مجيئه !!

سارعت تعلن :

ـ أنا ... أنا ... أكرهه !

ضحكت صاحبتها :

ـ خفضى صوتك لئلا تسمعنا ...

ـ أقول لك : أنا أكره عبدو سلام !

ـ مليح : أنت تكرهينه ، ونحن جميعاً نحبه ! هل زارك الليلة فى المنام ؟!

فشتمتها :

ـ يلعنك ، فاطمة !

ـ وجدتك فى الصباح الباكر تتكلمين مع نفسك !

ـ أنا ؟! (وتفكرت) وهل سمعت ما حدثت نفسى به ؟

ـ كان الذى يتكلم شفتاك وعيناك وقسمات وجهك ؟ وأما صوتك فلا يكاد يسمع . كنت تخرجين رأسك من تحت اللحاف ، ثم تطمرينه ، ثم تخرجينه ... وأخيراً علا صوتك !

صوتى علا ؟ ! طيب ، ماذا قلت ؟

ـ ترددين : شريفة ! شريفة ! أنا بنت شريفة !

أنكرت بصوت جسور :

ـ أنا لم أقل هذا !

ـ خفّضى صوتك : ومن أين لى أن أعلم ؟ لئلا تسمعنا ماما فردوس !

سمعتك بأذنى يا سعدى . أنت... (وتضاحكت بوقاحة) إلى متى تظلين « مجنونة » بعبدو سلام ؟ أنت مجنونة بحبه ، يا سعدى ! أنت مجنونة ! قد يحيلونك إلى « العصفورية » ! اصحى على نفسك . هل... (رأتها تبتسم بمكر) هل داعبك ليلة أمس فى المنام ، يا سعدى ؟

فكرت فى حنق : هى ذى فاطمة تحزر ! ولكنى لم أحك المنام لأحد ! اللعينة تعرف .

— هل داعبك فى المنام ؟ داعبك عبدو سلام ؟

أعلنت فى عزم :

— خسئ !

فاطمة تتأوه :

— آه ! ليته يداعبنى أنا ، فأستسلم له !

وجدت صوتها يعلو :

— خسئ ! خسئ ! خسئ !

— أقول يداعبنى أنا ، لا أنت ! لماذا تغضبين ؟ أراك تغارين !

— أنا لا أغار !

— قولى إنك تحبينه ! أنت تغارين عليه .

وانفجر ههنا فى حلقها نداء مذعور :

— ماما ! ماما! ماما ! ....

أقبلت فى إثره ، ماما وداد والإخصائية الاجتماعية ، خرجتا إليها من « الإدارة » ركضاً ! سألتها الإخصائية :

ــ ما بك يا سعاى ؟

ــ ماما . . . إنها تعذبنى !

ــ مَنْ منهن ؟

تلفَّتت بحثاً عنها :

ــ فاطمة ، يا ماما . . . إنها فاطمة « الشحاذة » !

ــ أين هى ؟

تجمعت حولها البنات ، متسللات من « المشغل » ، متحلقات حول البركة ، ثم مالئات أرض الدار . وجئن بفاطمة ، فانتهرتها [illegible] :

ــ أى شىء جعلك تغادرين المشغل يا فاطمة ؟

رأتها تجيب بخوف :

ــ استأذنت ماما فردوس ، لأشرب .

ــ وشربت ؟ أم أنك خرجت تتعرضين لسعاى ؟ كم مرة قلنا لكن : دعنها وشأنها ! هيا إلى المشغل .

* * *

ارتقت الدرج ، وهى تفكر بسعادة : الإدارة تُعنَى بى ! نعم ، إنهن يعنين بها ويُلبِّين رغباتها : تتمنَّع عن الطعام ، فيترضينها ! تتشكى من إحداهن ، فيدفعنها عنها ! تصدف عن تعلم الخياطة ، فيتركن لها حرية دخول المشغل والخروج منه وقت تشاء !

ودفعت باب المهجع ، محدِّثة نفسها بصوت :

ــ وهأنذى، الآن، أرغب فى الصعود إلى المهجع ، فتسمح لى ماما وداد !

واستدركت ، وقد غاضت السعادة فى قلبها : ولكنه لا يهتم بى ! ، آه ، إنه يخاف الإدارة . يموت رعباً من الإدارة ! لم يعد يكلمها ! وهى كلما أمعن فى صمته ، اشتد حبها له ! إنها تكرهه . صامت ، أخرس ، لا ينطق ! مرة مدّ يده نحوها . كانت إلى جواره فى المطعم ، تحت ؛ وكان مقرفصاً يفض أغراضه التى جاء بها ، وهى منعطفة عليه تساعده ؛ مد إليها يده ، تلك التى تمسك خيطاً من قنب ، حدثت نفسها فى ابتهاج : هوذا يتعلل بذلك ليتحسس صدرى ، فيما تكب أم محمود اللحمة تعاينها ! ... ولكن يده ترتفع إلى وجهها ، فقالت فى نفسها : يريد لمس خدى ! ... يده تزداد ارتفاعاً ، قالت : شعرى ! ... ولكن اليد تتابع انطلاقها كالسهم ... فإذا هو — يا لخيبتها ! — يقصد مسماراً فى الجدار قد تراكمت عليه « الخيطان » ، فيضيف خيطه القنبى إليها ! كادت ، من خيبتها ، تصرخ . كادت تهوى بيدها عليه ، وقد عاد يتابع عمله ! تكرهه ، نعم ، نعم ، فلماذا لا تشكوه إلى الإدارة ؟ إنه يتحرش بها ، يريد أن يمتحن استعدادها ! يجب أن توصل الأمر إلى الإدارة . لقد أسرّت إلى ماماوداد :

— مدّ يده إلىّ ، ياماما . قصد أن يداعبنى ، فأجفلتُ ، وتراجعت إلى الوراء . فلما لم يجد منى استجابة ، تظاهر بأنه يريد أن يعلق خيطاً على مسمار فى الجدار ! آه ، يا ماما . . عبدوسلام رذيل . إنه يتحرّشُ بى !

واعترضت عليها ماما وداد :

— ولكننا لم نلحظ عليه مأخذاً من هذا القبيل ، يا سعدى ؛ من

يوم توظفه فى المعهد وهو يدخل إلينا ويخرج بأدب . .

فأكدت لها (وهل تخفى الحقيقة عن ماما وداد ؟) :

ـ أنت لاتعلمين ، ياماما ؟ ؟ إنه يحملق بى ! ومن أين لك أن تعلمى ؟إنه يرشقنى بنظرات ذات معنى !

ـ وأين يراك ؟

ـ فى أرض الدار ، وفى المطعم .

ـ فى المطعم ؟ ! وما يحملك على الدخول إليه ؟ ألسنا مانعاتكن من دخوله ، فى غير أوقات الطعام ؟

اعترفتْ لها :

ـ إنى أتسلل إليه ، دون علم أحد ، يا ماما ! إنى أساعده ! إنه ، يا حرام ، يتعب ! إنى أساعده مع أم محمود .

لقد لمحت ، هنا ، فى عينى ماما وداد ، إيماضة :

ـ سعدى . . صارحينى ، يا ابنتى : ما رأيك بعبدوسلام ؟ لاتخفى علىّ .

أحست ، الآن ، أنها أشد قرباً إلى قلب ماما وداد :

ـ إنه شاب وسيم ، يا ماما . الحقيقة : أنه وسيم وطيب . إنى أحبه ! ولكنه ، ياماما ، يطاردنى !

ـ يطاردك ؟؟ !

لأت دهشة تلتمع فى عينى المراقبة التى تحبها !

ـ نعم . إنه يأتينى فى المنام ، ويداعبنى !

ـ أوه ، سعدى ! سعدى ! أنصحك بألا تفكرى فيه . ابتعدى

عن طريقه ، يا سعدى . دعى الرجل فى حاله . لسوف نعمد إلى إخلاء سبيلك ، عما قريب . لقد كتبنا إلى أبيك فى ضيعته ، وقد آن له أن يحضر لتسلمك قاضى الأحداث مهتمّ بأمرك !

فكرتْ ، وهى فى ضجعتها على السرير : كتبوا إلى أبى ! أنا لا أريد أن أفارق المعهد . وانقلبت إلى الجانب الآخر : لماذا تنصحنى ماما وداد بألا أفكر فى عبدو سلام ؟ ولكنى لا أفكر فيه. وجلست فوق السرير : إنه هو ، هو الذى يستبد بفكرى ! توجهت نحو النافذة الشرقية : الذنب ذنبه . ولكنى لاأريد أن أخرج من المعهد ، إلى حيث ينقلنى أبى من بيت ، إلى بيت يدفع أصحابه أجراً أكبر فأتلقى من التعذيب قدراً أكبر ! وتطلعت إلى شجرة السرو : لن يتاح لى ، فى غير هذا المكان ، أن أستمتع بهذه الوحدة . إنى أصعد إلى المهجع حين أريد ، وأخرج من المشغل حين أريد ! ثم فكرت على نحو آخر : إنى ، من يوم ماقصصت على ماما وداد حديثى ، من عشرة أيام . وهى تزيد فى تدليلى وملاطفتى والعناية بى ! بل إن الجميع ازدادت عنايتهن بى وتغيرت معاملتهن . لقد رفعوا عنى كل قيد — ما معنى هذا ؟! — إلا قيداً واحداً وضعته على الإخصائية الاجتماعية فى صيغة الأمر : « لا تدخلى المطعم عندما يكون فيه عبدو سلام ! » . . . . لماذا ؟ لماذا ؟ أيخافون علىّ منه ؟ أنا بنت شريفة ! أنا لا أخاف منه !

وقفت أمام المرآة : ما أجمل عينيك يا سعدى ! واسعتان ، تسبحان فى سواد . كم تحبهما ماما وداد !

وهبطت بناظريها إلى بدلتها ، والمشط فى يدها تسرّح به شعرها .
أى فارق بين لبس الخدمة فى البيوت ، وبين هذه البدلة الكحلية النظيفة تلبسها هنا ! تخيط البدلات لهن ماما فردوس .

وعاودت النظر إلى عينيها ، تخاطب نفسها فى عزم : حياتك هنا ، يا سعدى ، سعيدة ، أليس كذلك ؟ ولكن ما يشغلك ، أيتها المسكينة ، عبدو سلام. إنه يطاردك. يطاردك فى الأحلام! البنات عرفن خبر الأحلام ! لن يخيفنى ! أنا بنت قوية . سأبرز له ! سأتحدّاه ! ما باله تأخر اليوم ؟ لم أسمع ، بعد ، الرنة التى يبعثها فى جرس الباب . سأتسلل إلى المطعم ، بعد قليل ، دون أن يشعر بى أحد وأبرز له . قبلنى فى المنام . هل يقبلنى فى اليقظة ؟ آه ، متى يقبلنى فى اليقظة ؟ قبلنى من هنا ، من هنا ، من هنا. . . لم تكن أم محمود معنا ! أمسك بى هكذا ، هكذا . عانقنى وقبلنى من شفتى ، وكاد. . . آه . كاد يهم بى ، لولا أن صرخت . .
وخاطبت نفسها : لماذا صرخت يا سعدى ؟ وأحسست بجمرة تملأ جوانحها : لِمَ استغثت ؟ لمه ؟ لمه ؟

سمعت ، هذا رنين الجرس يصلصل فى أرض الدار ، رنة عبدو سلام المعهودة !

وفكرت فى تصميم : لن أصدّه ، هذه المرة !

وأسرعت إلى النافذة . . . تطلّ .

* * *

امتلأ قلبها فرحاً : هو ذا عبدو سلام فى أرض الدار ، يحمل مئونة اليوم .

أغلقت باب المهجع وراءها فى رفق . قلبها يخفق خفقاناً مريعاً .
نزلت الدرج بتؤدة . تحاذر أن تقع عليها عين . هوذا يعاود الحمل من الباب إلى المطعم .

هتفت بينها وبين نفسها : يا عبدو ! يا عبدو ! لماذا أنت هكذا ؟
ألا تسمعنى ؟ لماذا تطاردنى ؟ تطاردنى ؟ تطاردنى ؟ لسوف أشكو أمرك معى إلى الإدارة ، ها !!

غدت فى أرض الدار . تلقّطت أنفاسها . دخل المطعم . وباب الدار أغلق . خير لها أن تسير فى أرض الدار صامدة، دون ما خوف أو احتراس لا خوف ، لا خوف ! تريد ... إنها تريد أن تذهب إلى «دورة المياه» . غدت قرب البركة . هوذا المشغل مغلق بابه . وباب حجرة الإدارة مغلق أيضاً : هنّ فى اطمئنان : إنها فى المهجع ، فوق ! لا عين تراها . لتدخل فى هذا الباب ، إذن . لا يخامرها خوف . الباب أغلقته وراءها فى هدوء. عبدو سلام ، هو ذا — يا عينى عليه ! — يضع صندوقاً على الأرض . إنه يدير وجهه نحوها . ينظر إليها . وجهه يتورّد .

— دعى الباب مفتوحاً !

صاح بلهجة أقربَ إلى الأمر .. فكرت : آه منه ! إنه يتكتّم، يحاول دائماً أن يخفى عاطفته نحوى . طيب ، لو كان الأمر فى يده أتراه يهتف بى فى رفق : «سعدى ، حبيبتى ، أنزلى رتاج الباب ، وهلمى إلىّ ! » ...

تدانت منه ، وهو يدنو إليها فى رضى . ثم ... رأته ، فجأة ،

يقبل عليها أى تبدل ! ولكنه تجاوزها إلى الباب ، يفتحه ! كاد لسانها يعلن : « إلى متى ، عبدو ؟ » . وقف فى الباب لايبرحه . إنه ينادى :

ــ أم محمود ! تعالى ، يا أم محمود !!

آه ، الجبان يستغيث ! بدل أن تطلق هى صرخة استغاثة ! أم أنه ينادى أم محمود لتعاونه ؟

ــ أنا أعاونك ، يا عبدو !

قال يخاطبها فى تأنيب :

ــ أقول لك : : دعيه مفتوحاً !

تساءلت غير مصدقة : لماذا يظهر اليوم هذه القسوة كلها ؟ ووجدت نفسها تخاطبه فى داخلها فى رقة : « عبدو ! يا ملاكى إنى أراك فى منامى ! » أتعالنه بما تراه فى الليل ؟

أقبلت أم محمود ، حاملة بين يديها الأوانى .

ــ هأنذى جئتك ، يا عبدو . هات لأرى .

قعدت القرفصاء . وقرفصت أم محمود قبالته .

ــ هذى فاصوليا بيضا .

سألته أم محمود :

ــ أرنى لحمة اليوم ! كانت لحمة البارحة . . .

وفكرت ، وهى ترمقهما فى حقد : يهملنى ! يتحدث فى الأكل ولا يهتم بى ! أبصرت إلى جوارها طبقة من الصحون النحاسية . عبدو سلام لم يعد يهتم بها . تتمنى لو تتناول واحداً من هذه الصحون ، وتهوى به

على رأسه . لم هذا الخوف كله؟ لم لا يسفر ؟ قبلها الليلة الماضية !
إنه ، الآن ، وأم محمود يتحاوران . قبلها الليلة الماضية . مازالا يتحاورن.
أكياسٌ تُفَرّغ ، وأوانٍ تملأ ، قبّلها الليلة الماضية . لم لا يقبّلها ، الآن ؟
تكرهه ! تسللت إليه برغم كل مانع. قبّلها هنا، في هذا المكان .
ودنت إليه . عندما قبلها الليلة الماضية ، كان في المطعم، هنا ، مقرفصاً
هكذا ، كما هو الآن ! وكانت هي إلى جواره كما هي الآن ! تحس الآن
خوفاً . لم تكن أم محمود في الليلة الماضية معهما .

ــ خذ الأكياس معك . تجمع منها عندنا عدد كبير .

ــ سآخذها .

لا يحسّان بوجودها . لا يحسّ هو بوجودها . قبّلها . ترك في الليلة
الماضية ما في يده ، فيما هي منعطفة عليه ، وقام ليمسك بها . قبلها من
هنا ، من هنا . آه ، وكاد . أحست خوفاً ، مزيداً من الخوف .

أم محمود تقول ، وهي تغادر المطعم :

ــ لا تنس ، يا عبدو : خذ الأكياس معك .

امتلأ فؤادها بالخوف . هي وعبدو سلام ، وحيدان في المطعم !

هو ذا يمد يده نحوها . يمدها الآن في اليقظة ! يمدها حقيقة !
آه ، تخافه ! تشتاقه ! حدقت في يده الصاعدة إليها : ليس فيها الآن
خيط ! إنه يقصدها ، هذه المرة ! أتراه يقصد صدرها ؟ . . . خدّها؟
. . . شعرها ؟ . . . أخذت ، فجأة ، في إطلاق صرخة حادة مصدوعة
فيما هي ترى إلى يده تتجه نحو . . . الحائط ! !

ــ ما بك يا سعدى ؟ ما بك ؟ ما بك ؟

أحست نداءه اللهيف يتغلغل فى أعماقها ، حين كان العالم من حولها يستحيل إلى . . . . ؟ ؟ . ؟

. . . . ؟ . . . . ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

. . . . ؟ ؟ ؟ . . ؟ ؟

تحاول ، على غير طائل ، أن تفتح عينيها . إن صوتاً كصوت عبدو سلام ــ ولكن مرهقاً ــ يتسرّب إلى سمعها :

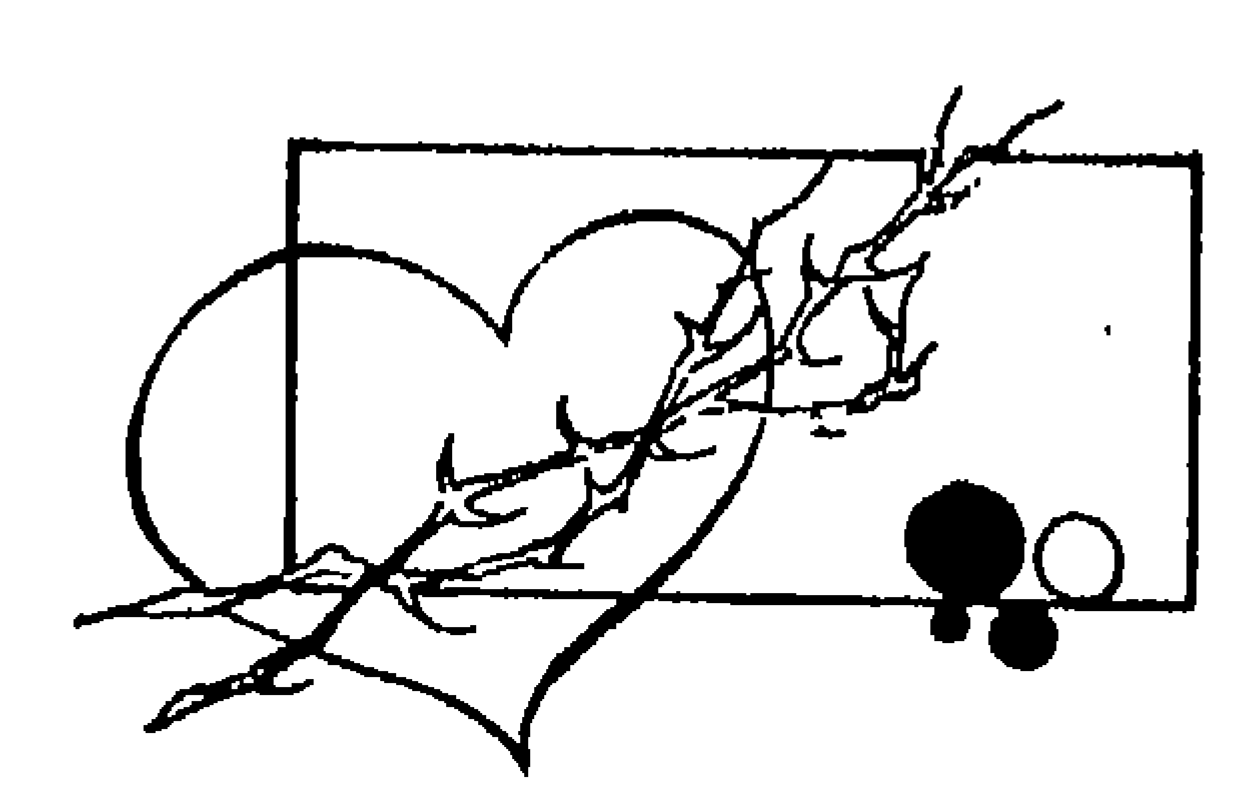
ــ أردتُ أن . . . أرزم الأكياس . . . بخيط ! مددتُ يدى إلى . . . الحائط ، إلى المسمار . . . كانت هى بجوار الحائط . . .

فتحت بالجهد عينيها .

وجدت نفسها موسدة على سرير المعاينة ، فى « إسعاف » المعهد ! هى ذى ماما وداد ، والإخصائية الاجتماعية ، والمدير أقبل من جناح الأحداث الذكور . . .

وهو ذا عبدو سلام يحكى ، رافعاً يده . . . بخيط قنبّ !

نهار مُشرق



ما إن وضعت قدمها على الرصيف ، حتى تبدت لها الدنيا أكثر إشراقاً . فرفعت وجهها نحو السماء : آن لها أن تشرق ، بعد أربعة أيام ممطرة !

وتساءلت برجاء : هل تصدق الصبية ، فيراجع أخوها المدرسة ، اليوم ، فيتسنى لى أن أتعرف إليه ؟ أن أستقبله فى « غرفة الموجّهات » ؟

يا لشمس هذا النهار ، ما أبدعها !

سأقول له ، فى صوت أضفى عليه مزيداً من الرقة : « أختك ، هند ، تلميذة لطيفة ومهذبة ، تحبها زميلات الصف جميعاً ! » . سأكون فى هذا كاذبة ، فإن هند بنت خمول وغير محبوبة . . . « ولكنها ، فى العربى والرياضيات والإنكليزى ، تحتاج إلى عناية ! » . . . وقد يداعبنى ، إذا كان مرحاً : « فماذا يبقى لأختى من مواد دراسية هى بارعة فيها ؟! » . ويضحك ، ويغرق فى الضحك ، حتى ليهتزّ جذعه ، وهو قبالتى على الكرسى الخيزرانى ، فيستلفت بذلك نظر زميلاتى الموجهات !

ستظل تذكر لحظة لمحته ، يوم الثلاثاء الماضى ، هو وأخته ، واقفين أمام واجهة أحد المحال ، تشير الصبية إلى حذاء يلتمع تحت الأضواء ، وكأنها تحضه على أن يشتريه لها ! وقبل أن تفلح فى إقناعه ، كانت هى — فى إقبالها عليهما — قد تعثرت قدمها فى مسيرها على الرصيف (أو هى تعمدت ذلك !) ، فصدرت عنها جلبة استلفتت بها الأنظار ! . . فإذا الصبية تهتف بأخيها : « انظر ! إنها الآنسة فريال ،

موجهة صفى ! » . ثم ، وقد تجاوزتهما ، لم تعد تدرى ما أجاب أخته . كل ما وعته أن هذا الشاب ، الفارع القامة ، ذا البزّة العسكرية الأنيقة ، هو رجل رائع ، وأنها نجحت فى استلفاته ، وأن نظرات منه دافئة قد لفحتها ، وهى تتابع سيرها . . . مبتعدة عنهما ، وكأن شيئاً لم يحدث !

يا لشمس هذا النهار ، ما أحيلاها ! لقد أبرقت السماء ، فى الأيام الماضية ، وأرعدت وسفحت من هتون دمعها ما سفحت . . .

وصحت إلى نفسها : لقد وفقت إلى أن أنتزع ، بواسطة الصبية ، وعداً منه بأن يزور المدرسة :

ـ هند ! يجب أن يحضر أحد ذويك إلى المدرسة ، يا هند !

ـ آنسة ، أبى متوفى ، وأمى مشغولة دائماً .

ـ ولكن لابد من حضور أحد من أهلك لمقابلتى ، يا هند . أنت بنت طيبة ، وأخشى عليك من الرسوب ، فدرجاتك فى بعض المواد متدنية . . . أليس لك إخوة ؟

ـ بلى ، آنسة . وإن « بسام » أكبر إخوتى .

ـ وماذا يعمل بسام ؟

ـ ملازم طيار ، آنسة .

إنه هو إذن ! واسمه بسام !

ـ وهل يقيم معكم ؟

ـ نعم ، آنسة .

فهو عزب !!

ــ فليصحبك إلى المدرسة ، يا هند ، فى يوم قريب ، فإن عندى كلاماً يخصك يجب أن أحدثه به . . هذا ؟

* * *

وقفت « فريال » حيث تشرف ، من مطلّها ، على التلميذات وهن ينتظمن أرتالا ، ويغادرن الباحة إلى قاعات صفوفهن . إنها تجيل نظرها بينهن . ومن عجب أن تحس أن عينيها لا تبصران ، اليوم ، غير . . . هند أومأت لها بيدها إيماءة أن تعالى .

كم تبدو لها لطيفة ورصينة ! الحق ، أنها لم تكن كذلك . فى مطلع العام الدراسى ! كانت « غير مرتبة » : الملابس عديمة الأناقة ، والشعر مشعّث غالباً ، وظاهر كفيها ينم عن انعدام ولعها بالنظافة ! وأما بلادتها ، فيا حفيظ ! . .

ــ سيأتى أحد ذويك ، اليوم ، كما اتفقنا .

ــ نعم ، آنسة .

ــ ومن الذى يحضر منهم ؟

ــ أخى ، أخى بسام ، آنسة .

ــ فى الساعة ؟

ــ لم يحدد لى موعداً لمجيئه . قال إنه سيحاول أن يأتى . . . وأضاف : « لابد أن آتى إلى مدرستك ، يا هند ! » .

ــ طيب . . . إلى صفك .

ورقص قلبها ! ما ألطفها ! أى أمر بدّلها تبديلا ؟! . . : كانت ، إلى ما قبل أسبوع ، فى عداد التلميذات اللواتى لم تستطع أن تعقد بينها وبينهن وفاقاً قط : «أميمة» الشغوب التى تفنن فى إزعاج المعلمات ، و «نهال» التى خطت على حائط الصف كلمات تمس معلمة الرياضيات و «رغداء» التى تعنى بأناقتها أكثر مما تحتمل سنها ؛ و «ريمة» التى لبست ، يوم الرحلة إلى «الغوطة» ، «شورت» استلفت الأنظار ؛ و «فتون» الباهرة الجمال ، المختالة الحمقاء !! .

ومرت بها «فلك» وهى تتقدم رفيقاتها إلى قاعة الصف . فأشارت لها بيدها . . . فأقبلت هذه تنط نطّاً :

— صباح الخير آنسة .

— أهلين ، فلك . (ثم مالت عليها تسألها فى لهفة) أما جئت بالصور ؟

— تريثت البنت لحظة ، وهى تتثنى :

— بلى !

— وأين هن ؟

— «الألبوم» فى محفظتى .

— هيا ائتينى به .

ثم أخذت تفكر : لقد عينتها «عريفة» على تلميذات صفها منذ أن . . . وتبسمت بمرارة : بنت خمس عشرة تخطب ، وأنا بنت الحادية والعشرين !!! وفكرت على نحو آخر : لو أن لأبى مثل ما يملك أبوها

من مال وجاه ، لكان عندى ، الآن . . . طفلان ! وضحكت . تزاحم الخطاب على باب هذه الصبية الصغيرة، فاختار لها أبوها منهم ذلك المهندس الشاب الذى أشاعت فلك بين البنات أنه وسيم ، وأنه يغدق عليها فيضاً من حبه ، وأن صوراً وفيرة قد التقطت لهما معاً ، وللأهل ، فى ليلة « كتب الكتاب » ! . . . باتت تميل إلى فلك — مع أنها كانت مائعة ومشاكسة — منذ أخذت تسر إليها بأخبار الخطبة ، والحب ، وال . . . — قبلات المختلسة !

هى ذى تعود بالألبوم ، وقد لفته بقرطاس . تناولته منها :

— شكراً ، فلك .

— عفواً ، آنسة .

ودسته تحت إبطها .

وفى « الممرّ » رفعت من صوتها صارخة :

— أنتن ، يامن هناك ! إلى صفوفكن ، هيَّا !

وانثنت تسائل نفسها : متى يثين لى أن أتصور ، فى حفلة ، أنا و . . . ؟

دلفت إلى غرفة الموجهات وضعت الألبوم ، فى حرص بالغ ، فى درج مكتبها ، وأنزلت عليه لسان القفل .

وفى البهو ، برزت لها « فتون » ، تلك المعتزة بجمالها ، المتباهية بقامتها الفارعة على صغرها :

— فتون ! لِمَ لم تدخلى صفك ، يا فتون ؟

اقتربت فتون منها ، و « انعطفت » عليها :

ــ آنسة ، سألنى أبى مساء أمس : . «أين مفتاح باب الدار ؟ » ؛ أجبته : «قد صادرته منى الآنسة فريال ! » . فأهاب بى : « قولى لآنستك : بابا يرجو أن ترديه إلىّ ! » .

يا لجمالها الباهر :

ــ وإذا لم أردّه إليك ؟ !

ــ استغرب أبى أن تصادرى منى مفتاحاً !

ــ قولى له لا يستغرب ، فالمفتاح معقود بسلسلة ، رأيتك تلوّحين بها ، وسط الباحة ، كما يفعل الـ . . شباب ! فتون ! اصغى إلى : أنت بنت مغرورة ! أنت تتصورين نفسك أكبر من سنك ! (أمعنت جيداً ، وهى تلقاها ، فى هدب عينيها : لله ما أشد سحرها!) عليك أن تعرفى أنك ما تزالين طفلة ! مائة مرة قلت لك هذا . المسألة ليست بالطول ، ولكن بالعقل !

احتجت فتون :

ــ آنسة ، أرجوك ، لا تهينينى !

ــ وتزأرين فى وجهى ، ياوقحة !! (قذفت بوجهها بهذا النعت ، وهى ترفع يدها إلى كتفها ، وتدفعها نحو باب صفها دفعاً) يا الله ، امشى من قدّامى !

ثم زفرت فى ضيق ، وهى توليها ظهرها : كم أكرهها ! أتمنى لو أسحق رأسها سحقاً !

وبينا هى تتابع سيرها ، ترامى إليها صوتُ فتون يعلو فى بكاء :

يا لهؤلاء البنات ، ما أقل حياءهن إن أسوأهن طراً أولئك اللواتى منحن حظاً من جمال ! إنهن بغيضات ، لا يطقن ، قد أسيئت تربيتهن ! «بابا يقول : رديه إلىّ » ! ومن يكون أبوها ؟ « مدير التربية » ؟! لبأت أبوها إلىّ ، فأراه . مغرورات ! بتنا نحمد الله على أنه لم يمنحنا الجمال ، فكفانا بذلك شر أن نكون مغرورات ، وقحات ، سمجات ! أف ! ما هذا الجيل ! أى قدر أوقعنى فى هذه المهنة : . « موجهة » فى مدرسة إعدادية لا تضم إلا المراهقات !

وأرسلت ناظريها نحو باب المدرسة ، فلمحت ، هناك ، البوّاب مقتعداً كرسيه ، يتشمّس ، قرير العين . فى نفسها لو تسأله : « هل مرّ بك شاب ، فارعُ القامة ، يرتدى بزّة زرقاء ، وعلى كتفيه نجيْمتان ؟ » !

* * *

ارتدّت فريال إلى غرفتها . فرأت الآذنة تعد الشاى الصباحىّ على المدفأة . فما كان منها إلا أن أخرجت رغيفها من حقيبتها ، وناولتها إياه :

— سخنيه ، يا « أمّ محمود » !

ودون أن تعير زميلاتها الموجهات التفاتاً ، أعملت المفتاح فى درج مكتبها ، وفضت الألبوم من قرطاسه ، داخل الدرج ، وأخذت تستطلع الصور متفرّجة . .

هى ذى فلك ، فى ثوبها الأبيض الفضفاض ، وخطيبها إلى يسارها ،

يلتصق بها التصاقاً حتى لكأنهما جسد واحد!! أين يمناه ؟ كفه اليسرى تحتوى فى راحتها كف الخطيبة ! ولكن أين يده اليمنى ؟ أين فالك تشرح وتفسر ؟

انتزعتها من أفكارها زميلتها «منيرة خانم» :

ـ أى شيء يشغلك عنا ، يا فريال ؟

ردّت ، وهى تسرع فى إغلاق الدرج :

ـ لا شيء لا شيء !

وقدّمت لها الآذنة قدح الشاى ، والرغيف الذى غدا ساخناً .

ـ شكراً ، أم محمود .

ـ العفو ، فريال خانم .

اقتطعت لقيمة من رغيف الجبن ، ورشفت من القدح رشفة . ثم ما وعت إلا وهى تسحب الدرج ، وتكب على الألبوم من جديد : الأهل ، هنا ، يحيطون بالخطيبة . وههنا يبدو الخطيب وسيماً حقًّا . ولكن « فلك » تبدو ظريفة هى الأخرى . الثوب الزاهى ، والحلى ، والتطرية ، وروعة الاحتفال ، ذلك كله يضفى عليها نضارة ورواء . أحب فلك : لقد اخترتها عريفة على صفها ، من يوم أن أعلمتنى بخبر خطبتها ! ومنذئذ وهى تمدنى بحكايات صغيرة لذيذة ! هذه الصبية ، عاطفتها سبقت سنها ! وكم تخلفت ، أنا ، فى هذا المضمار !!

وخرجت إلى البهو : إن الفتاة ، إذا ما تجاوزت سنى دون أن تعثر على رجل ، قال عنها مجتمعى : قد فاتها القطار !

يا لحظى لم تقبلنى الجامعة فى أى من كلياتها . . . (وأخذت تغسل يديها) فسعيت ، بمائة واسطة ، حتى تم لى أن أتوظف موجهة «بالوكالة» ! لو أن «مجموعى» ، الذى حصلت عليه فى امتحان الثانوى ، أعلى بدرجتين ، لكنت قبلت طالبة فى كلية الآداب . . . آه أين ابن الحلال ؟ . . .

انطلقت إلى الممر الطويل . أحست ، بعد دفء الغرفة ، بلسعة برد . إن «الأستاذ بدر الدين» يدرس اللغة العربية «بالساعات» ، شاب مناسب . . . لولا أن معلمة الموسيقى تجد فى إثره ! ولكنه — يا للشماتة ! — لا يأبه بها .

صوته الجهورى يترامى إلى سمعها من نافذة الصف :

— . . . «بشيخ» : الباء ، هنا ، حرف جر زائد .

ضحكت فى سرها : والله ، إن لم تلتفت إلىّ ، يا أستاذ بدر الدين ، لأنت أنت حرف زائد ، حرف لا يجرّ ، حرف مهمل ، حرف ساقط . . . تودّ لو تصيح بملء فيها : رجل لا قيمة له !» ثم تغرق فى ضحك عريض !

— «إنما الشيخ من يدب دبيبا» !

اختلست النظر إليه ، عبر النافذة : معلم جادّ ، لا يهتم بغير دروسه ، ومن أجل هذا عينوه فى «إعدادية للإناث» ! سيتخرج ، هذا العام ، فيتاح له أن يغدو معلماً «أصيلا» ذا راتب ثابت دائم . إنه على شىء من صباحة الوجه ، ولكن أناقته فى الحضيض : لعل ذلك

بسبب الفقر . حذاؤه أغبرٌ على الدوام . سيكون أمام معلمة الموسيقى مجال كبير «للعمل» أن توفق فى «اصطياده» ، ثم تبذل الجهود فى «إصلاح شأنه» !

واتجهت نحو باب المدرسة : وأما أنا ؟ فإن لى . . .

ــ هل أطلّ عليك شاب ، فارع القامة ، يرتدى بزّة عسكرية ، يا «أبو دياب» ؟

ــ لا !

ــ ملازم طيار ، على كتفيه نجيمتان ؟

رمقها البوّاب بنظرة

ــ لم يدخل مدرستنا ، اليوم ، من الرجال غير: معلم العربى !!

* * *

ــ ما هذا الوضع الغرامى ، أيتها الجنية ؟!

ــ آنسة ، لا تخجلينى !

تابعت فى همس :

ــ أين يده اليمنى ؟ أجيبى !

تبسمت الصبية :

ــ تطوّق خصرى ! كان ، تلك اللحظة . . يدغدغنى !

ــ آه ! يا لكما من عفريتين ! وهؤلاء ؟ . . . هذه ، من هذه ؟

ــ إنها أمى .

ــ وتلك ؟

ـ أخته ؟

ـ أخته رائعة الحسن ، كما تبدو . أهم من أسرة ثرية ، أيضاً ؟

ـ أبوه تاجر فى « سوق الحميدية » ، جار لأبى .

فكرت فريال تلك هى الحقيقة ، إذن : « صفقة » بين تاجرين !

ـ حدثينى ، يا فلك هل اختلس منك ، يوم الحفلة ، . . . ؟ هل ضمك إلى . . . ؟

ـ آنسة ! أرجوك ، والله أخجل !

وفرّت من أمامها : صبية فى صف الكفاءة ، تنهل من كأس الحب ؟ وأنا ، التى يجب أن أكون سنة ثانية كلية الآداب ، من أى كأس أنهل ؟

دخلت عليها الآذنة :

ـ فريال خانم ، المديرة تطلبك ، وتقول : أحضرى معك المفتاح الخاص بالتلميذة فتون !

أغلقت الدرج ففتون قد اشتكتنى إلى المديرة ! غادرت المكان : الوقحات ، لا يرعوين ! سأعرف أى أمر أكاشف به المديرة

ـ ما حكاية فتون ، يا آنسة فريال ؟

ـ بالاختصار ، يا حضرة المديرة : فتون بنت تحس أنها أكبر من سنها ، لا تكفّ عن التباهى بجمالها وقامتها الفارعة هى صحيح حلوة ، ولكنها لا تدرك أنها ما تزال طفلة ! قلت لها هذا مائة مرة !

ـ وما حكاية المفتاح المصادر ؟

ـ هو ذا ، إنه ذوسلسلة طويلة ، كما ترين لحتها تختال فى الباحة ، وهى تلوح بالسلسلة ، تلفها حول إصبعها ، ثم تعيد ذلك مرة ومرة ، صنيع الشباب فى عرض الشارع

ـ والحوار ، الذى جرى بينك وبينها ، هذا الصباح ؟

ـ وقفت تجاهى ، وعينها أعلى من عينى ، تحد النظر إلىّ حتى تـكاد تفترسنى ، وتخـاطبنى بلهجة آمرة : « بابا يقول : ردى المفتاح إلىّ ! » . فطردتها من أمامى . كم كانت وقحة معى ، منذ الصباح !

ـ هل دفعتها بكتفها

ـ ذلك أنها متأخرة عن الدخول إلى صفها !

رنت إلى المديرة وهى تعتصم بالصمت ، لحظة . ما بها ؟ أهى تحقق معى ؟ أنا لم أرتكب خطأ أؤاخذ عليه !

ـ آنسة فريال ، أريد أن أعترف لك بأناك ، إجمالاً موجهة لطيفة مع تلميذاتك . . .

ـ جداً ، يا حضرة المديرة . كلهن مولعات بى !

ـ حسن ، ما رأيك فى أن تزيدى بعضهن تعلقاً بك ؟

ـ إن بين البنات عدداً من المشاغبات الشرسات ، اللاتى لا ينفع معهن اللطف ، يا حضرة المديرة ! أما تذكرين التلميذة نهال وما خطته على حائط صفها ، إذ كتبت اسم معلمة الرياضيات « رمزية علايا » محرّفا : « رزية بلايا » ؟! وكيف أن الأخرى ريمة خرجت على

طاعتى ، يوم الرحلة إلى «الغوطة الشرقية» ، عندما لبست . . .

قاطعتها المديرة

ــ صحيح ، يا آنسة فريال . . . ولكنّ كلا منهن ، بمساوئها ومحاسنها ، تظل بنتًا من بناتنا ! إن الكلمة اللينة ، إن المحبة الصافية ، وإن العطف ، الحنان ، ذلك ما يجعل من التلميذة ، التى تسلك سلوكاً . . . .

* * *

ــ دونك الألبوم ، يا فلك . لتهنئى بخطيبك . (وخرجت وإياها من الغرفة ، وذراعها تطوّق كتفها) أما عزمت على مصارحتى : هل اختلس منك قبلة ؟

ــ أوه ، آنسة فريال ! والله أخجل !

ــ ولم الخجل ؟ أنا فتاة من جيلك . عليني رفيقة لك . هل اختلس . . . ؟

ــ بل أعطيته إياها برضاى !

ــ ومن أين قبلك ؟ من أين ؟

ــ من . . . من . . . . . .

وأشارت الصبية إلى ثغرها ، قبل أن تنسل من تحت ذراعها .

فكرت فريال ، وقد غدت فى المطل المشرف على الباحة : الكلمة اللينة ، المحبة ، العطف إننى أحب التلميذات ، وأعد نفسى واحدة منهن . . . . وها هى ذى فلك ، إنى لأحسدها ، كما لو أنها رفيقة لى أو أخت ! أتطمح المديرة فى أكثر من ذلك ؟

وعن بعد لمحت هند . أشارت لها . إنى لأحب هند أيضاً . أحبها بكل سيئاتها التى كانت وحسناتها الآتيات . . . . . .

ـ أنت على يقين من أن « الملازم بسام » سيحضر اليوم ؟

ـ أجـــل ، آنسة . قال لى : « لابد أن آتى إلى مدرستك ، يا هند » ! .

ـ ذلك ضرورى ، من أجل مستقبلك . طيب ، شكراً .

فكرت ، وقلبها يرقص طرباً : « مستقبل » ، نعم ، ولكن مستقبل من ؟ حقًّا ، إنه لشابٌ رائع ! أن تحظى به ذلك ما يجعلها تهجر العمل ، وتتخلى عن حلمها العظيم فى دخول الجامعة ، ملقية بهمومها ، دافنة إياها فى بحر النسيان !!

لمحت ، هناك ، رغداء تلك تعنى بأناقتها أكثر مما تحتمل سنّها :

ـ رغداء ! تعالى هنا .

هذه البنت ستورثنى الجنون ! كم نصحتها بالكلام اللين ، باللفظ المعسول ، أن تقلع عن أن تولى مظهرها تلك العناية كلها . . . دون جدوى !

ـ ما هذا « الشال » الفاخر تلتفعين به ، يا رغداء ؟

ـ يقينى للبرد ، يا آنسة !

ـ عينى ! كم مرة نبهتك إلى أن تخففى من غلواء اعتنائك بمظهرك ؟ أنت تلميذة إعدادى ، بعد .

ـ ولكن الدنيا برد ، آنسة !

ـ أأصادره ، كما صادرت أمس ، السلسلة من رفيقتك فتون ؟

ــ لا ، آنسة . يخليك . والله ليس لى ؟

ــ ولمن هو ؟

ــ لأمى . قد استعرته منها هذا الصباح ، لأدفع به عن نفسى غائلة البرد .

ــ طيب ، لن تلتفعى به غداً !

ــ حاضر ، آنسة .

وانصرفت إلى نفسها تتساءل برضى : وهل للمديرة أن تحلم بأن تتحلّى موجهاتُ مدرستها بلسانٍ أطرى وأحلى؟ كل ما هنالك أنى أعطى كل موقفٍ حقه !

* * *

ــ آنسة ! معلمة الإنكليزى تقول تعالى إلى الصف !

ــ خيراً ؟

ــ إنها أميمة . . . التى ترفض أن تخرج من الصف !

فكرت فريال : تلك الشغوب التى تفتنّ فى إزعاج المعلمات !

ورأت المعلمة ، فى الصف ثائرة :

ــ آنسة فريال ! أعصابى لم تعد تحتمل وجودَ هذه العنيدة ! أمس فرضت عليها أن تكتب الدرس ، الذى لم تتقنه ، عشر مرات . واليوم تأتينى دون أن تكلّف نفسها عناء كتابته مرةً واحدة . « لم يا أميمة؟ »؛ «عشر مرات كثير ، يا آنسة ! » ؛ تريد أن تحدد لى عدد المرات التى يحق لى أن أفرضها على الكسولات ! « اخرجى من الصف ! » . أتدرين ما قالت لى ؟

ـ ... ؟ . ؟ . ؟

ـ «إذا طلبت الجزاء من غيرى ، فاطلبيه منى ! » : تريد أن تعلمنى الأصول ! لم يبق إلا أن تجلس ، هنا ، على المنبر !

توجهت فريال إلى الصبية :

ـ لم ذلك ، يا أميمة ؟

. فشكَت البنت أمرها :

ـ آنسة! فرضتْ ، أمس ، على نصف بنات الصف كتابة الدرس عشر مرات . ثم لم تقدر واحدة منا أن تكتب المرات العشر . واليوم رضيت الآنسة أن تؤجل الجزاء للجميع إلى يوم غد ، ما عداى! !

اهتاجت المعلمة :

ـ أميمة ! اخرجى من الصف ، أقول لك ! ! (أخذت تصرخ فى لهاث) لم أعد أطيق رؤية هذه البنت الشغوبِ ! أعلن ذلك أمامك ، أنت موجهة الصف ، يا آنسة فريال اعلِمى المديرة بذلك ، أرجوك !

قالت فريال بلهجة آمرة :

ـ أميمة ! اتبعينى !

ولحقها صوت المعلمة

ـ أنا لن أقبلها ، بعد اليوم ، فى صفى !

وأخذت فريال تحاور الصبية :

ـ لم ذلك ، يا أميمة ؟

فدافعت عن نفسها :

ـ ولكنى لم أخطئ هذه المرة ! تُعنِّف الجميع ، وتستثنينى ! إنها هى التى لم تعدل !

ـ وتقولين لها : « إذا طلبته من غيرى ، فاطلبيه منى ! » ؟... تُنَصِّبين نفسَك قيِّمة عليها !

ـ آنسة ، إن الظلم شيء بغيض ، لا تحتمله أعصابى !

استرسلت فريال فى نصحها :

ـ اهدئى ، يا أميمة ! أنت صغيرة . ما أنت إلا فى الخامسة عشرة . وأما معلمتك ، فهى فى الأربعين ، تعرف أضعاف ما تعرفين ، وتتحمَّل من ضغوط الحياة أضعاف ما تتحمَّلين . . . إذا غضبت أو ثارت ، فعليك أن تُخفِّضى لها جناحاً ... فإنها التى ترعى عقلَك وتُنمِّى مواهبك . . . ينبغى أن يكون لها عندك منزلةُ الأم ، يا أميمة ، ومحبتُها ، وإعزازُها . . . (سرَّها أنها تجود فى النصح) ألا تعتقدين أن مجابهتك لها ، وهى فى سورة غضبها ، كانت تصرفاً منك لا تشكرين عليه ؟ هيا اعترفى لى ، أنت فتاة ذكية وواعية. إنى أكلمك أختاً لك كبرى ، فأجيبينى أختاً صغرى قد استوعبت الموعظة الحسنة . . . هيَّا ! !

أغضت أميمة بناظريها :

ـ كان علىَّ أن أحتمل غضبتَها !

استشعرت فريال سعادة :

ـ طيب . لتبقى ، فى البهو هنا ، ريثما ينتهى الدرس ، فأساعدك فى أن تقبل منك المعلمة اعتذارك عما بدر منك من تهور !

ثم مضت نحو الباحة شامخة الرأس : هأنذى أعالج ، بالكلمة اللينة ، تلميذة شغوباً ذات عناد ، وأفلح فى إقناعها . . . أين عين المديرة تشهد ؟

* * *

وتوسّطت الشمس كبد السماء .

— هل مرّ بك الملازم الطيّار ، يا أبو دياب ؟

أجاب البوّاب بصوت أجشّ :

— قد مرّ !

هتفت ، وهى تحسّ قلبها يزداد خفقاناً :

— أين ؟ منذ متى ؟

— قبل . . . عشر دقائق !

— وإلى أين قُدْتَه ؟

— لأنه لم يكن يعرف وجهةً له ، فقد دلَلْتُه على غرفة المديرة

ارتدّت فريال ، مُعْجِلةً ، على عقبيها : اجتازت الباحة بخطواتٍ واسعة . هذا البواب اللعين ! . ثم عدت فى الممر الطويل . يا له من مُخرِّب ! إنه يتعمّد الإساءة إلىّ !

حومت حول باب غرفة المديرة .

تلقّط أذنها حواراً . ولكنها لا تستبين ما يقال . لم لم تستدعها المديرة ؟

— أم محمود ! هل سأل عنى أحد ؟

— لا فريال خانم

وطافت فى أرجاء البهو: إنها تحاوره ، منذ عشر دقائق ! ما تريد منه ؟ !

ولمحت أميمة . فلعنتها ، فى سرها ، ولعنت معلمة الإنجليزى !

إن استدعائى إلى الصف ، فى الدقائق الماضيات ، فوّت علىّ فرصة أن . . .

دارت فى رأسها خاطرة ، مضت تحققها دون توان :

— أميمة ! الواقع . . . إن المعلمة بدت غاضبة منك جدًّا . . . أنا لن آخذ الأمر على عاتقى . . . أجدنى مضطرةً لأن أعرض مشكلتك على المديرة ، فيكون لها رأيها !

توسَّلت الصبية :

— لا ، آنسة ، أرجوك . سأعتذر للمعلمة .

كانت فريال قد غدت فى غرفتها ، فتناولت ورقةً من فوق مكتبها ، ومضت بها إلى المديرة .

— أرجوك ، آنسة ! سأعتذر للمعلمة بحضورك ، وأتعهّد بأن أكتب لها الجزاء عدد المرات التى تطلب . أرجوك ، آنسة فريال !

المديرة تحدثه :

— . . . والمدْرسة تَسْعَدُ بمثل هذه اللقاءات الودية بين إدارتها وبين ذوى التلميذات !

استشعرت فريال حنقاً : إنها تتباهى باللقاء ، وكأنها هى التى دعت إليه !

ودفعت الباب :

— حضرة المديرة ، هذه الوثيقة تحتاج إلى توقيع منك . . . إنها . . .

مرت المديرة بناظريها على الورقة سريعاً ، ثم قالت :

ـ الآنسة فريال ، إحدى موجهات المدرسة . . . حضرته أخو التلميذة هند . . .

تقدّمت فريال منه . انتصب واقفاً . صافحته. شدّ على كفّها ، وهو يشملها بنظرة . . . فيها إغماضة عينَيْ صَقْر !

تابعت المديرة :

ـ يريد أن يستعلم عن وضع أخته فى المدرسة . . قلت له : إنها بنت طيبة . ما رأيك ، آنسة فريال ، فى أن تحدّثينا عن سير دراستها ، بوصفك موجهة صفّها ؟

كانت فريال قد عاينت ـ بنظرة خاطفة ـ شكله: بزّةٌ عسكرية أنيقة، نظيفة ، قد خرجت لتوّها من عند الكوّاء ! ربطةُ عنق معقودةٌ بعناية ! حذاءٌ أسود لمّاع ! . . .

ـ الواقع . . . أن أختك هند تلميذة لطيفة جدًّا ومهذبة جدًّا... (إنها تجتهد فى أن تُضْفى على صوتها مزيداً من الرقة والعذوبة) ولا شك أن هذا عائد للوسط العائلى الذى نشأت فيه . . . إن جميع تلميذات الصف يحببنها ! !

أمسكت عن الكلام لحظة ، لتلتقط أنفاسها المبهورة . هنأت نفسها على هذه « المقدمة » البارعة ، مستجمعة فى ذلك شتات ذهنها لمتابعة القول . . . ولكن المديرة ـ يا للعجب ! ـ تحشر نفسها فتقول :

ـ فعلاً هند بنت طيبة ، وما أذكر أن شكوى وصلتنى عنها . وعلى كل حال ، بخصوص دراستها ، هى ، كما أعلم ، فى مستوى

متوسط ، يستدعى منكم السهر على رعايتها فى البيت . تعاون وثيق يجب أن يقوم بين المدرسة والبيت ، وأن يستمر . . .

رأت فريال المديرة تختتم « خطبتها » ، ثم تمدّ نحوها يدها بالورقة ممهورة بالتوقيع . فتناولتها ، وهى تكاد تنشقّ من الغيظ !

— شكراً ، آنسة فريال !

عجباً ! وإنها تريدنى أن أغادر المكان :

— حضرة المديرة ، كنت أريد أن أعلمك بأن هناك تلميذةً مشاكسة هى أميمة ، قد استدعتنى معلمة الـ . . .

قاطعتها المديرة :

— دعى ذلك إلى وقت آخر !

ولكنها تابعت :

— لقد اشتجرت الآن ، مع معلمة الإنجليزى ، على مرأى من تلميذات الـ . . .

— لتقدّم المعلمة إلىّ تقريراً بالحادثة .

استدارت فريال نحو الباب . لكم تمنّت ، وهى تخطو ، او تتعثّر الآن، تتعثّر حقيقةً، فتهوِى على الأرض، فيُسرع هذا الشاب إليها ، يقيها — بزنديه القويين — شرّ السقطة ! !

وما فاتها أن تتبسّم له ، قبل أن تغيب وراء الباب .

ثم جدّفت ، فى البهو : يا للأنانية ! تريد أن تستأثر به ، وهى الـ . . متزوجة ! !

* * *

اقتربت منها أميمة ، تسألها فى ضراعة :

ـ وماذا رأت المديرة ؟

اتجهت فريال نحو غرفتها :

ـ أقول لك الحق ؟ لقد استاءت جداً ، وأوصت بأن تكتب المعلمة تقريراً بالحادثة ، وأعلق عليه بما أعرفه من سوابق سلوكك الشخصى !

ارتعدت البنت :

ـ ولكن . . . ما الداعى إلى هذا كله ، يا آنسة ؟! ماذا اقترفت ؟

لذّ لها أن تعذّبها :

ـ من ناحيتى ، قد بذلت جهدى ! ولكن المديرة أصرّت : وسوف يعرض التقرير على « لجنة التأديب » ! وأظن أن الفصل من المدرسة ينتظرك ! (استشعرت راحة قصوى ، وهى تراها تنشج) والآن ، أنصحك بأن . . . تبحثى ، منذ غد ، عن « مدرسة خاصة تؤويك » يا أميمة ! !

غصّت الصبية بدمعها :

ـ ! كنت أحسب . . . أن . . . هذه المشكلة الصغيرة . . . ستؤدى إلى فصلى !

ـ كم قلنا ، وكم نصحنا ، دون جدوى ! نحن فى واد ، وأنتنّ

فى واد : تلك هى الحكاية !

قالت فريال ذلك ، ثم خيل إليها أن أذنيها تلقطتا وقع خطوات على بلاط البهو : اشرأبت بعنقها ، فلم تر أحداً ، لم تر شيئاً .

أسرعت تغادر الغرفة .

خلّفت البهو وراءها ، منطلقةً إلى الممر الطويل .

رأته فى آخر الباحة ، على مقربة من الباب الخارجى . البواب يقف احتراماً ، يؤدى له التحية !

جدّت فى إثره .

توارى خلف الباب .

وقال أبو دياب ، وهو يكشف عن أسنانه المصفرّة :

— لن تستطيعى اللحاق به . إنه واسع الخطى ، طيّار !

وأطلق ضحكة مجلجلة ، كريهة .

لمحته يسير على الرصيف المقابل : عظيمٌ فى مشيته ! يغمره نور الشمس . لا يفصلها عنه سوى شارع ، عَرْضُ شارعٍ ، يتدفق فيه شلال سيارات !

لسوف أتغلب على كل الصعاب ، وأفلح فى استدراجه كرة ثانية : سيزورنى فى غرفتى ، ويجلس إلى جوارى ، على الكرسى الخيزرانى ، وأحادثه بما يحلو لى من حديث . . . لقد شد على يدى بحرارة ! !.....

* * *

فى عودتها ، وقد استردت شيئاً من طمأنينتها ، رأت أميمة ما تزال تبكى . فربتت كتفها بحنان :

— كفى عن العويل ، يا أميمة ، وأنا أعدك بأن أبذل من أجلك جهداً آخر . إن فى وسعى أن أسوى الأمر مع المعلمة والمديرة كلتيهما ! اذهبى ، فاغسلى وجهك أولا . . .

قالوا في أدب المؤلف

• الدكتور نقولا زيادة ، بيروت :

إن أدب فاضل السباعي يمثل الحياة التي يلحظها بين جماعته وأمته . إنه يعالج ، في كل قصة ، مشكلة من المشاكل الاجتماعية والنفسية التي يتعرض لها مجتمعنا ، وهو يكتب عنها بعمق ، فكأنه يحاول أن يسبر غور هذه النفس البشرية ويعرض ما يعتمل فيها من عواطف وبواعث ومنازع . وهو يكتب دون تكلف أو تصنُّع ، كما لو كان يتحدث إليك . وهذا ، فيما أعتقد ، أحد أسرار نجاحه .

• المستشرق الدكتور عبد الكريم جرمانوس ، بودابست ، المجر :

. . . وقصة « أريد أمي » لفاضل السباعي هي قصة بسيطة حقّاً ، ولكنها روحية عميقة القرار ، من يراع فنان مجرِّب ، مختبر لعواطف الإنسان من المهد إلى اللحد ، ولعلها في قمة الإنتاج القصصي الذي يسبر الجوانب النفسية الخفية التي تسود في روح المخلوقين ، لا يفهمها إلا من عانى مرارة الحياة وكابد قساوتها .

• **الدكتور علي الناصر ، حلب :**

. . . وعندي أن على كل من له علاقة بتربية الأطفال ، أن يقرأ القصة الناجحة المفيدة « رسالة غير ودّية »، لعلمي أن الأطفال حساسون جداً تجاه الظلم والإجحاف بحقوقهم . ومن هنا تظهر الفائدة في هذه القصة التي تمكن فاضل السباعي من عرضها – وبلغة الأطفال – عرضاً فنياً موفقاً ، ونجح في إنهائها بصورة لبقة ، وهذا ما يمتاز به أدبه ، روايات طويلة كان أو قصصاً قصيرة .

كتب للمؤلف

روايات :

رياح كانون .
الظمأ والينبوع (طبعة ثانية) .
ثم أزهر الحزن .
ثريا .

مجموعات قصصية :

حزن حتى الموت .
حياة جديدة (طبعة ثانية)
نجوم لا تحصى .
الليلة الأخيرة .
مواطن أمام القضاء .
الشوق واللقاء .

قيد الطبع :

الطبل (قصة مطولة) .
اعترافات ناس طيبين (قصص) .
ثم أزهر الحزن (طبعة ثانية) .

محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٤٥٨٦ / ١٩٧٥
مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٥
١/٧٥/٢٣٨

